# من
# أخلاق الإسلام

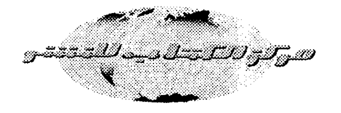
تأليف

**الدكتور/ رمضان المحلاوى**

كبير مذيعى إذاعة القرآن الكريم - القاهرة
أستاذ مساعد بكلية التربية للبنات
المزاحمية - الرياض

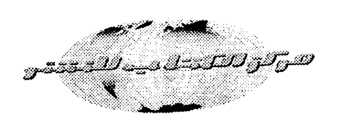
**الطبعة الأولى**

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦ م



**الطبعة الأولى**

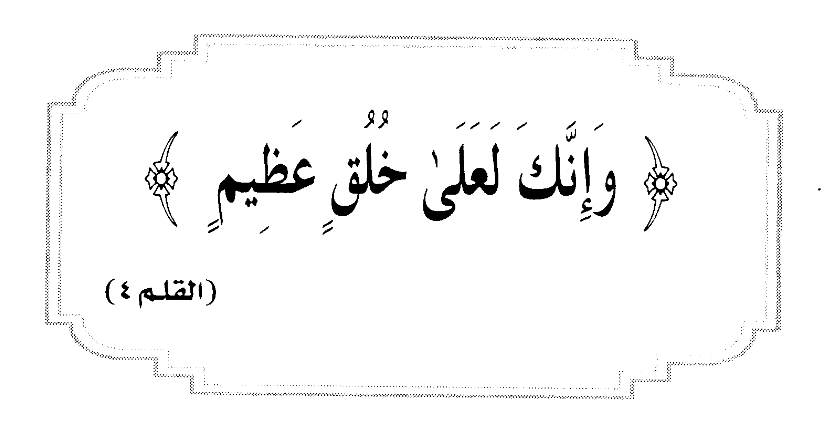
**١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م**



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net


﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
(القلم ٤)



# استهلال

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيِّدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ....

**أخى المسلم!!**

هل تشعر بارتفاعٍ شديدٍ فى ضغط دمك؟

هل تشعرُ باختناقِ الصوتِ فى حلقك؟

هل تشعرُ باضطرابٍ نفسى وعصبى يكادُ يؤدى بك إلى الاكتئاب أو يقربك من حافة الجنون؟

هل تشعرُ بآلامٍ مبرحةٍ فى كل جزء من أجزاء جسدك؟

هل تشعرُ بفقدانِ اتزانك؟

هل تشعر بفقدان شهيتك للطعام ولكل شىء شهى؟

هل تشعر بعزوف عن كل من حولك وما حولك؟

هل تشعرُ بعدم التركيز أو عدم الاستطاعة على مواجهة المواقف المصيرية؟

هل تشعر برياحِ اليأسِ التى تكاد تقتلع جذورك من منابتها؟

إن كنت تشعر أخى المسلم بأيٍ من هذه الأعراض أو ببعضها أو بها مجتمعةً فلا تقلق وتعال معى كى أدلك على مفتاح الشفاء الذى يفتح لك أبواب الدواء من كل داء فبين سطور صفحات هذا الكتاب ستجد الوصفة السحرية التى تعالجك بإذن الله من كل داء وتحقق لك بإذنه تعالى الشفاء، فتعال معى لنزين أنفسنا بأخلاق الإسلام فإن فيها الشفاء من كل داء، واصبر قليلاً فبالصبر تملك ما تشاء وبالصبر تتفتح لك أبواب السماء.

أيها القارئ العزيز: هذا كتابٌ فى أخلاق الإسلام التى هى بمثابة الدرع الواقى للمؤمن لكى يقى به نفسه مما قد يعتريه من أمراض وأسقام وأوجاع وآلام أضعه بين يديك بغية أن نعود إليه كلما شدنا الحنينُ إلى الاهتداء إلى ما يشفى الصدور والقلوب والنفوس وكلما شدنا الحنين إلى التحلى بتلك الأخلاق الوسيمة الكريمة.. أخلاق الإسلام.. أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان خلقه القرآن.

والله أسأل أن يوفقنا جميعًا للتحلى بأخلاق الإسلام تلك الأخلاق الكريمة والنبيلة التى يجب علينا جميعًا أن نتحلى بها وأن نزيِّن نفوسنا وصدورنا وقلوبنا وسلوكنا بها ،،،،،،،،،،

# مقدمة

أخلاق الإسلام ذلك الكنز النفيس الحاوى لكل ما هو غالٍ ونفيس، مَنْ تحلَّى بها غنم، ومن عاش بها سلم، وهى مشكاة من النور ومن السعادة والسرور، مَنْ زيَّن بها نفسه تحلَّى فبان النورُ عليه وتجلَّى، وهى النبع الذى لا ينضب ماؤه ولا يتوقف عطاؤه، إنها أخلاق الرسول وهى الحبل الموصول، مَنْ تعلق بها نجا وبلغ المنى ومَنْ تمسك بها نال خير الجَنَى.

أخى المسلم.. انطلاقًا من إدراك واعٍ لحقيقة أن الأزمة التى نعيشها اليوم ويعيشها العالم أجمع ليست بحال من الأحوال أزمة مادية أو أزمة اقتصادية بقدر ما هى أزمة أخلاق فلقد رأيت أن أعد هذا الكتاب على أساس فكرة البرنامج الإذاعى الذى كنت أعده وأقدمه عبر موجات إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة وكان يحمل نفس عنوان هذا الكتاب (من أخلاق الإسلام) فى الفترة من ١٢/٢/١٩٩٧م وحتى تاريخ إعارتى للعمل فى المملكة العربية السعودية فى ٢١/١٠/٢٠٠٣م وهى مدة تزيد قليلاً عن الست سنوات وثمانية أشهر أى ما يزيد عن ثمانين شهراً من عمر الإنسان قدمت خلالها ما يزيد قليلاً عن تسعمائة وستين حلقة من حلقات هذا البرنامج الثرى مع علماء أفاضل من المتخصصين فى الأخلاق الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف وكانت الحلقات جميعها تدور حول هذا الموضوع المهم موضوع (أخلاق الإسلام).

نعم الأخلاق ضرورة والتحلى بها أكثر أهمية فى حياة المسلم فبالتحلى بالأخلاق القويمة يسعد الإنسان فى دنياه مع البشر وفى آخرته عند مليك مقتدر هذا بالنسبة للفرد فأما إذا تحلت المجتمعات بدورها بتلك الأخلاق القويمة فحرى بتلك المجتمعات أن تكون مجتمعات فاضلة تسعد بأبنائها ويسعد بها أبناؤها، ولقد كان مثلنا الأعلى وقدوتنا ونور أعيننا نبى الله ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ الأسوة الحسنة فى التحلى بالأخلاق القويمة فهو الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه فلقد قال ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» وقد قال عنه رب العزة جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عظيم﴾ [القلم: ٤]، كما قال عنه الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وكما قال عنه رب العزة جلَّ وعلا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، حقًّا وصدقًا لو كان ﷺ فظًا غليظ القلب لانفض الناس من حوله، وحينما سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول عليه الصلاة والسلام قالت رضوان الله عليها: لقد كان خلقه القرآن. نعم لقد كان الرسول ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض، نعم تعيش الأمم الراقية بالأخلاق وتنهض الدول والأفراد بالأخلاق الكريمة ورحم الله من قال:

إنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإن همو ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

لا يفوتنى فى هذا المقام أن أشيد بالأساتذة الكرام الذين شاركونى فى إعداد وتقديم ذلك البرنامج كل واحد منهم على حدة وأن أقدم لهم واجب الشكر انطلاقًا من مبدأ الشكر الذى علمنا إياه رب العزة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومن منطلق ما علمنا إياه رسول الله ﷺ حينما قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، فلقد وافقوا على فكرة تحويل بعض حواراتى الإذاعية معهم إلى مادة مقروءة ضمنتها فى كتابى هذا عن الأخلاق. من تلك الكوكبة من فرسان الكلمة أذكر وبخاصة من وافق منهم على نشر حواراتى معهم **الشيخ منصور الرفاعى عبيد** وكيل وزارة الأوقاف الأسبق وورثة فضيلة المغفور له بإذن الله **الأستاذ الدكتور محمود بسيونى فوده** أستاذ ورئيس قسم التفسير السابق بجامعة الأزهر وفضيلة **الأستاذ الدكتور المحمدى عبد الرحمن عبد الله** أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، **وفضيلة الأستاذ الدكتور زكى محمد عثمان** أستاذ ورئيس قسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر وفضيلة **الأستاذ الدكتور عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى** الأستاذ بجامعة الأزهر بارك الله لهم جميعًا ونفع بعلمهم وكتبه فى ميزان حسناتهم.

أيها القارئ العزيز اسمح لى أن أتوقف قليلاً أمام اثنين من هؤلاء الفرسان الخمسة بكلمات قليلة وفاءً لهما وإجلالاً لقدرهما، وأول هذين الفارسين هو **الأستاذ الدكتور زكى محمد عثمان** الذى يشغل حاليًا منصب رئيس قسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر. هذا الرجل كان قد أصيب بمرض شلل الأطفال فى ساقيه الاثنتين فى طفولته المبكرة فأصيب بذلك المرض المقعِد اللعين فلم يستمتع بطفولته كبقية أطفال جيرته ولم يلعب الكرة كما لم يلعب مثل قرنائه تلك الألعاب والأنشطة الرياضية التى سعدنا بها جميعًا ونحن صغار كالاستغماية والسباحة وركوب الدراجات واختراق الضاحية ونحوها، فظل قعيد المحبس؛ محبس الأسر الاختيارى الإجبارى فى نفس الوقت لأسرة فقيرة لا تستطيع أن توفر له وسيلة من وسائل التنقل التى كانت الأسر القادرة توفرها لأبنائها المقعدين، وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد فما خفى كان أعظم لطفل لم يتعد بعد عامه الثالث فلقد أصيب ذلك الطفل وقبل أن يبلغ الثالثة من عمره بمرض أشد إيلامًا وأكثر تعجيزاً وقهراً وإقعاداً من سابقه ألا وهو مرض كف البصـر فى عينيه الاثنتين، فأصبح الطفل ذو السنوات الثلاث رهين المحبسين محبس العمى ومحبس القعود الحركى، ولقد كان ذلك بلاءً من ربك عظيمًا سواء للطفل أو لوالديه، أما الوالدان فقد صبرا على الابتلاء صبر الشاكرين المحتسبين وأما الطفل الذى بارك الله حوله وأمده بمدد خاص من عنده فقد كان أكثر صبراً وأكثر إيمانًا على ما ابتلاه به ربه كما كان أكثر تصميمًا وأكثر عزمًا على قهر هاتين الإعاقتين التى كانت تكفى إحداهما لقهر أكثر الرجال قوة وشدة، فكان ذلك الطفل المعجزة بعون من الله وبمساعدة فريدة من أم رؤوم ليست كغيرها من الأمهات اليائسات المستسلمات، كان أن جعل القرآن الكريم رفيقًا له فحفظ القرآن فحفظه القرآن وهو دون السادسة وكان دائمًا يردد أن القرآن أهلٌ لمن لا أهل له، فجعل القرآن كل أهله كما جعله عينيه اللتين يرى بهما فصار يرى ما لا يرى المبصرون، كما جعل القرآن قدميه اللتين يمشى بهما فصار يذهب إلى أماكن لا يستطيع أن يصل إليها الأصحاء من مخترقى الضواحى، كما أبدى ذلك الطفل المعجزة شغفًا شديداً بدراسة تفسير القرآن وعلومه إضافة إلى العلوم الفقهية وعلوم

السيرة والسنَّة واللغة العربية نحواً وصرفًا وأدبًا واللغة الإنجليزية التى أجاد التحدث بها، فتدرج فى دراساته بالمعاهد الأزهرية إلى أن حصل على شهادة الثانوية الأزهرية بتفوق ثم التحق بجامعة الأزهر وكان يزحف على راحتيه وركبتيه من وإلى الجامعة وكان سائقو الأوتوبيسات يعرفونه من بُعدٍ فكانوا يقفون له أينما رأوه تحية وتقديراً؛ فهو الشاب المكافح الذى لم يجلس بجوار مسجد من المساجد ليتسول وقد كان مؤهلاً لتلك الحرفة بل حفر الصخر بأظافره حتى يحقق لنفسه مكانًا ومكانة تحت الشمس فكانوا يساعدونه فى الصعود إلى الأتوبيسات أو الهبوط منها كلما رأوه لأنه كان لا يملك أن يستأجر مرافقًا لمرافقته من وإلى الجامعة.

وبتوفيق من الله حصل وبتفوق على ليسانس أصول الدين شعبة الدعوة عام ١٩٧٩ ثم ليسانس شعبة التفسير عام ١٩٨٣ إلا أن طموحه كان أكبر بكثير من درجة الليسانس فسجل للدراسات العليا وواصل الليل بالنهار فحصل على درجة الماجستير فى الاقتصاد الإسلامى بدرجة جيد جداً ثم سجل لنيل الدكتوراه فى الدعوة الإسلامية فى القرن السادس الهجرى وحصل عليها أيضًا بمرتبة الشرف الأولى ثم عُين مدرسًا بجامعة الأزهر فأستاذاً مساعداً فأستاذاً فرئيسًا لقسم الثقافة الإسلامية بكليته حاليًا، ويشرف على عدد هائل من رسائل الماجستير والدكتوراه فى مجال تخصصه. وله باع طويل فى مجال الدعوة الإسلامية عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وكان مشوار حياته مشرقًا ناصعًا ومضيئًا لرجل كافح كفاح الأبطال ليقول لنا نحن الأصحاء: إن الصحة صحة العقل وصحة الإرادة وصحة العزيمة وصحة الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس قبل أن تكون صحة للبدن، لقد تشدق الغرب كثيراً بطفلته المعجزة هيلين كيلر Helen Keller الأمريكية (١٨٨٠ - ١٩٦٨) التى وُلدت فى ألاباما بأمريكا وعندما بلغ عمرها تسعة عشر شهراً أصيبت بمرض حاد نتج عنه أن أصبحت تلك الطفلة صماء عمياء بكماء فأحيطت تلك الطفلة برعاية الأمة الأمريكية بأكملها وسُخرت لها ملايين الدولارات لتصبح هيلين كيلز معجزة القرن العشرين على حد قولهم إلا أن شيخنا هذا ليستحق وبجدارة أن يساوى أربعين أو خمسين أو مائتى هيلين كيلر مجتمعة، فهذا الشيخ زحف على راحتيه وركبتيه فوق لهيب الأسفلت وتسلق الأتوبيسات وعانى فى

زحامها فى وقت كانت هيلين كيلر تلك تُحاط بعشرات المتخصصين فى كافة العلوم والآداب والفنون لتأهيلها وتعليمها، كما كان يُنفق عليها من حساب بنكى مفتوح فى وقت كان شيخنا لا يجد ثمن الكتاب الجامعى فكان يستعيره من أحد زملائه ثم يعيده إليه بعد أن يقرأه فيحفظه فى ذاكرته الفولاذية، لقد قهر هذا الشيخ إعاقتيه ولم تقهراه، ذلك ليثبت للأصحاء قبل المعوَّقين أن الملاذ بالله وأن الملاذ بكتاب الله وأن قوة الإرادة وأن قوة العزيمة لأولى أن نلجأ إليها جميعًا لنستمد منها قوة فوق قوة وسنداً فوق سند، ولقد استحق هذا الشيخ وسامًا رفيعًا بل أوسمة على صدره وآن له أن يدرس الشباب حياته لتكون لهم نبراسًا ومثلاً يُقتدى، وإنى لأفخر كونى صديقًا لتلك الشخصية الخارقة.

أما الفارس الثانى فهو المغفور له بإذن الله **الأستاذ الدكتورمحمود بسيونى فوده**، هذا الرجل يرحمه الله كان يحب عمله لدرجة العشق فكان كلما دعوته للتسجيل للبرنامج يبدى فرحة خاصة وكان يدع جانبًا كل مشاغله الأخرى ويتفرغ للحلقات التى سنقوم معًا بتسجيلها وكان موعد التسجيل عادة صباح يوم الجمعة، فإذا ما انتهينا من تسجيل البرنامج صعدنا معًا إلى الطابق الثامن فصلينا الجمعة فى مسجد التليفزيون ثم يسير كل منا فى طريق. إننى لا أنسى ذلك اليوم من شهر يولية سنة ٢٠٠٣ وبالتحديد يوم ٢٠٠٣/٧/٢٥ وكان يوم جمعة حيث كان من المفروض أن يبدأ تسجيل البرنامج الساعة العاشرة والنصف صباحًا، وحان موعد التسجيل ولم يأت الرجل ومرت الدقائق العشر الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولم يأت الرجل ومرت ساعة كاملة ولم يأت، وكان يرحمه الله لا يتأخر دقيقة واحدة عن موعد التسجيل، فعجبت من الأمر وبدأت أشعر بانقباض وخوف فى قلبى وبدأت أشعر بالخوف والقلق لأن نظر الرجل كان ضعيفًا للغاية فخفت أن يكون أصابه مكروه وهو فى طريقه إلى مبنى الإذاعة فاتصلت ببيته لأستبين الأمر ففزع أهل بيته عندما علموا أنه لم يصل إلى مبنى الإذاعة فى موعده مع أنه غادر فى موعده، وقالوا إنه بعد صلاة الفجر كان قد أخذ يعد الحلقات التى سيقدمها فى البرنامج كعادته ثم إنه كان يراجع الحلقات وينقحها ويعيد قراءتها أكثر من مرة إلى أن يحين موعد توجهه إلى مبنى الإذاعة للتسجيل، وقد أكدوا لى أنه كان فى ذلك اليوم قد اتبع نفس

النظام الذى كان يتبعه من قبل ثم أنهوا المكالمة الهاتفية بأن قالوا إنهم سوف يستبينون الأمر، وكانت المفاجأة التى زلزلت كيانى وكيان جميع أصدقائه ومحبيه ومريديه فلقد كان له أصدقاء كثيرون ومحبون ومريدون أكثر، كانت المفاجأة أن وجد أفراد العائلة الرجل جالسًا على إحدى درجات سلم بيته وهو مبتسم وكأنه كان راضيًا مرضيًا بقدره وقد أسلم روحه لبارئها بعد أن صلى فجر ذلك اليوم ووضع فى جيبه نصوص حلقات برنامج من أخلاق الإسلام وكان شبه حافظ للمادة التى كان سيسجلها معى لذلك البرنامج، غفر الله للفقيد العزيز الأستاذ الدكتور محمود بسيونى فوده العالم العامل الذى كان بحق يعمل بما يعلم وألهم آله ومحبيه وتلاميذه الصبر والسلوان.

أيها القارئ العزيز هذا كتاب فى أخلاق الإسلام أضعه بين يديك بغية أن نعود إليه كلما شدنا الحنين إلى التحلى بتلك الأخلاق.. أخلاق الإسلام.. أخلاق رسول الله ﷺ الذى كان خلقه القرآن.

**والله أسأل أن يوفقنا جميعًا للتحلى بأخلاق الإسلام تلك الأخلاق الكريمة والنبيلة التى يجب علينا جميعًا أن نتحلى بها وأن نزيّن بها أنفسنا .........**

دكتور رمضان المحلاوى

الرياض: شهر رمضان المبارك ١٤٢٦هـ الموافق لشهر أكتوبر ٢٠٠٥م

# الباب الأول

## معنى الأخلاق وأنواعها
## والحاجة إليها



# الفصل الأول

## معنى الأخلاق

معنى الأخلاق اصطلاحًا: الأخلاق جمع خُلُق والخلق هو السجية التى يُولد الإنسان بها أو يتسم بها بلا تكلُّف، والخُلُق بضم اللام وسكونها: الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه ووصافها ومعانيها المختصة بها وتتعلق بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما تتعلق بأوصاف الصورة الظاهرة، وديننا الكريم يدعونا إلى التحلى بحسن الخلق وينهانا عن أن نتصف بالذميم من الخلق، يقول رسول الله ﷺ: «ليس شيئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق»، ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

وإذا كان الخلق هو الطبع الداخلى أو الصورة الباطنة للإنسان فإن الخلق إما أن يكون فطريًا يُولد الإنسان مزوداً به وإما أن يكون خلقًا مكتسبًا يُربى فى النفس وينمو معها، وفيما يلى نوجز الفرق بين الخلق الفطرى والخلق المكتسب:

**أولاً الخلق الفطرى أو الطبيعى**: هو الذى يُولد الإنسان فيرثه بالفطرة الغريزية السمحة التى فطر الله الناس عليها ومن هذه الأخلاق الفطرية أو الطبيعية خلق الخيرية أو حب الإنسان للخير فإن الحق تبارك وتعالى يخلق عباده على الفطرة ثم يقوم أبواه ومجتمعه والبيئة المحيطة به بتشكيله فيما بعد، جاء فى صحيح البخارى: أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]»، ويرحم الله من قال:

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ فينا ... على ما كان عوَّدهُ أبوهُ

فإذا عوَّده أبوه أو رباه على مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال نشأ نشأة طيبة مباركة فكان له الخير فى الدنيا وكان له خير الجزاء فى الآخرة وكذلك الخير لمن أنشأه على تلك الأخلاق النبيلة والأفعال الحسنة.

**ثانيًا الخلق المكتسب:** وهو الذى يكون ناشئًا فى النفس البشرية بالتعلم أو التعود ويتدخل فيه دور التربية والبيئة المحيطة والرفقاء.

والأخلاق أو السجايا نوعان:

**أما أولهما فهو الخلق الحسن:** وهو ما وجَّه الإسلام أصحابه أن يتحلوا به وأن يتصفوا بصفاته ومنها الحلم والصبر والصدق والقناعة وقول الصدق وبر الوالدين ولين الجانب والعطف على الفقراء والمحتاجين والمساكين وصلة الأرحام والعطف على الأيتام وفعل الخيرات وردُّ الأمانات وما نحو ذلك الكثير والكثير من مكارم الأخلاق.

**وأما النوع الآخر فهو الخلق السىء المذموم والعياذ بالله:** وهو المنهى عنه فى الإسلام ومن الأخلاق السيئة المذمومة الكذب والنفاق والخداع والخيانة والغش والتدليس والظلم والبهتان والذم والطمع وغلظة القلب وترويع الآمنين وعقوق الوالدين وما نحو ذلك الكثير والكثير.

فعلى المسلم الذى حسن إسلامه أن يباعد بين نفسه وبين تلك الأخلاق الذميمة وأن يتحلى بالأخلاق الحسنة الكريمة أسوة برسول الله ﷺ المثل الأعلى فى التحلى بمكارم الأخلاق فهو الذى بعثه ربه ليتمم مكارم الأخلاق.

### معنى الأخلاق لفظًا:

جاء فى مختار الصحاح باب (خ ل ق): الخلق التقدير يُقال خلق الأديم إذا قدره قبل القطع وبابه نصر. والخليقة: الطبيعة والجمع الخلائق والخليقة أيضًا الخلائق يقال هم خليقة الله وهم خلق الله وهو فى الأصل مصدر والخلقة: الفطرة، وفلان خليق بكذا أى جدير به، ومضغة مخلقة: تامة الخلق، وخَلَقَ الإفك: من باب نصر واختلقه

وتخلقه: افتراه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. والخُلق بسكون اللام وضمها: السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه: أى يتكلفه، والخلاق: النصيب ومنه قوله تعالى: ﴿لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. وملحفة خلق وثوب خلق أى بالٍ يستوى فيه المذكر والمؤنث لأنه فى الأصل مصدر الأخلق وهو الأملس والجمع خلقان، وخلَقَ الثوب: بلى وبابه سهل، وأخلق: أيضًا مثله، وأخلقه صاحبه: يتعدى ويلزم، والخلوق بالفتح: ضرب من الطيب، وخلقه تخليقًا: طلاه به فتخلق.

وجاء فى النهاية باب (خلق): فى أسماء الله تعالى الخالق وهو الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة وأصل الخلق التقدير فهو باعتبار تقدير ما منه وجودها وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير خالق. وفى حديث الخوارج «هم شر الخلق والخليقة»: الخلق: الناس، والخليقة: البهائم، وقيل هما بمعنى واحد ويريد بهما جميع الخلائق. وفيه «ليس شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق» بضم اللام وسكونها: الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه ووصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق فى غير موضع كقوله ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»، وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وقوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، والأحاديث من هذا النوع كثيرة. وكذلك جاء فى ذم سوء الخلق أحاديث كثيرة. فى حديث عائشة «كان خلقه القرآن»: أى أنه كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف، وفى حديث عمر: «من تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله»: أى تكلف أن يظهر من يخلقه خلاف ما ينطوى عليه مثل: تصنَّعَ وتجمَّلَ: إذا أظهر الصنيع والجميل. وفيه (ليس لهم فى الآخرة من خلاق) الخَلاق بالفتح: الحظ والنصيب. ومنه حديث أبى (وأما طعام لم يصنع إلا لك فإنك إن أكلته إنما تأكل منه بخلاقك): أى بحظك ونصيبك من الدين قال له ذلك

فى طعام من أقرأه القرآن وقد تكرر ذكره فى الحديث. وفى حديث أبى طالب (إن هذا إلا اختلاق) أى: كذب وهو افتعال من الخلق الإبداع كأن الكاذب يخلق قوله.

وجاء فى لسان العرب باب (خَلَقَ): الخليقة: الطبيعة التى يتخلق بها الإنسان. وحكى اللحيانى: هذه خليقته التى خلق عليها وخلقها والتى خلق: أراد التى خلق صاحبها والجمع الخلائق. قال لبيد:

فاقنـعْ بمـا قسَـمَ المليكُ فإنما قسَـمَ الخلائـقَ بيننـا علامُـها

والخلقة: الفطرة، أبو زيد: إنه لكريم الطبيعة والخليقة والسليقة بمعنى واحد. والخليق: كالخليقة عن اللحيانى قال: وقال القنانى فى الكسائى:

ومـا لـى صديقٌ ناصحٌ أغتدى لـه ببغـــداد إلا أنـتَ بــرٌّ مـوافــقُ

يزيـن الكسائـىُ الأغــرُ خليقَـــه إذا فضحتْ بعضَ الرجالِ الخلائقُ

وقد يجوز أن يكون خليق جمع خليقة كشعير وشعيرة قال: وهو السابق إلىَّ. والخُلُق: الخليقة أعنى الطبيعة. وفى التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والجمع أخلاق لا يكسر على غير ذلك. والخلق والخلق: السجية يُقال خالص المؤمن وخالق الفاجر. وفى الحديث: «ليس شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق» الخلُق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق فى غير موضع كقوله: «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»، وقوله: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، وقوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكذلك جاءت فى ذم سوء الخلق أيضًا أحاديث كثيرة وفى حديث عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن، أى كان متمسكًا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف. وفى حديث عمر: من تخلق للناس بما يعلم الله

أنه ليس من نفسه شانه الله، أى تكلف أن يظهر من خلقه خلاف ما ينطوى عليه مثل تصنع وتجمل إذا أظهر الصنيع والجميل. وتخلق بخلق كذا: استعمله من غير أن يكون مخلوقًا فى فطرته. وقوله: تخلق مثل تجمل أى أظهر جمالاً وتصنع وتحسن إنما تأويله الإظهار، وفلان يتخلق بغير خلقه أى يتكلفه، قال سالم بن وابصة:

يـا أيهـا المتحلى غيـرَ شيمتِـه ... إن التخلـقَ يأتى دونـه الخلـقُ

أراد بغير شيمته فحذف وأوصل. وخالق الناس: عاشرهم على أخلاقهم. قال: خالق الناس بخلق حسن. ويقال أخلق الرجل: إذا صار ذا أخلاق، قال ابن هرمة:

عجبتْ أثيـلةُ أن رأتنـى مخلـقًا ... ثكلتـك أمـك أى ذاك يروعُ

قد يدرك الشـرف الفتى ورداؤه ... خلـقٌ وجيبُ قميصه مرقـوعُ

• • •

• • •

# الفصل الثانى

# أنــواع الأخــلاق

ذكرنا فى الفصل السابق أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين: أخلاق حميدة وأخلاق ذميمة وفيما يلى نوجز هذين النوعين من الأخلاق:

(أ) الأخلاق الحميدة: وهى المنشودة والمطلوبة.

(ب) الأخلاق الذميمة: وهى المذمومة المنهى عنها.

**(أ) أما الأخلاق الحميدة** فهى التى حضنا عليها ديننا الحنيف وأمرنا أن نتحلى بها ففيها سعادة الفرد فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وفيها سعادة المجتمع بأسره ومن هذه الأخلاق الحميدة:

١- الحلم
٢- دفع السيئة بالحسنة
٣- فعل الخير
٤- المسارعة فى فعل الخير
٥- الحكمة
٦- الإصلاح بين الناس
٧- الصدق
٨- قول التى هى أحسن
٩- البشاشة والوداعة
١٠- الاستقامة
١١- سلامة القلب
١٢- العفو عن الناس
١٣- الصفح
١٤- روح السلام
١٥- الرحمة
١٦- المودة
١٧- التعاون
١٨- الإخاء
١٩- الإحسان
٢٠- الإيثار
٢١- القِرى (إكرام الضيف)
٢٢- العفة

٢٣- غض البصر
٢٤- الإعراض عن اللغو
٢٥- القصد فى المشى وخفض الصوت
٢٦- السكينة
٢٧- الاعتدال فى الأمور
٢٨- شكر النعمة
٢٩- الصبر
٣٠- كظم الغيظ
٣١- الإقساط
٣٢- التواضع
٣٣- الوفاء بالعهد
٣٤- النظافة
٣٥- الحياء

(ب) **أما الأخلاق الذميمة** فهى التى حذرنا منها ديننا الحنيف وأمرنا أن ننأى بأنفسنا عنها ففيها شقاء الفرد فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وفيها تعاسة المجتمع بأسره ومن هذه الأخلاق الذميمة:

١- الظلم
٢- الرأى الفطير
٣- الفضول
٤- الخبث
٥- الاختيال والعُجْب
٦- التكبر
٧- الغرور
٨- المخاصمة والمنازعة
٩- الفعل المخالف للقول
١٠- الجهر بالسيئ من القول
١١- اتباع الشهوات
١٢- الكذب
١٣- سوء الظن
١٤- التجسس
١٥- استراق السمع
١٦- الغيبة
١٧- النميمة
١٨- البهتان
١٩- الهمز
٢٠- اللمز
٢١- التشييع للأخبار الكاذبة
٢٢- لغو القول

٢٣- اللهو واللعب

٢٤- السخرية

٢٥- التنابز بالألقاب

٢٦- الافتراء على الله ورسوله

٢٧- الجهر بالسوء

٢٨- الغضب

٢٩- الأسى على ما فات

٣٠- الغيرة

٣١- الجبن

٣٢- البخل

٣٣- المن والأذى فى الصدقات

٣٤- الطمع

٣٥- الأثرة

٣٦- الإسراف

٣٧- التبذير

٣٨- إطاعة المسرفين

٣٩- البطر

٤٠- الاستكبار

٤١- البغى

٤٢- الفساد

٤٣- الإفساد

٤٤- شهادة الزور

٤٥- الخيانة

٤٦- نقض العهد

٤٧- الفضيحة

٤٨- الغش

٤٩- المكر

٥٠- الرياء

٥١- الغل

٥٢- الحسد

٥٣- منع الخير

٥٤- البغض

٥٥- الغفلة

٥٦- القساوة

٥٧- الفجور

٥٨- الفسق

٥٩- المسافحة

٦٠- الكفران

٦١- الفواحش

٦٢- العهارة

٦٣- البغاء

٦٤- السكر

٦٥- الربا

٦٦- السرقة

هذا وفى الباب الثالث من هذا الكتاب دراسة تفصيلية لبعض الأخلاق الإسلامية الحميدة كما جاء فى القرآن والسنة.

فيما يلى نضرب مثلاً للأخلاق الحميدة بخلق الصبر كما نضرب مثلاً للأخلاق الذميمة بخلق الظلم:

**من أمثلة الأخلاق الحسنة الكريمة خلق الصبر:**

# الصبـــر

الصبر هو الصيام والإمساك وهو الاحتساب والتجلد وحبسُ النفس عن الجَزَع والكف عن المعاصى، عن النبى ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر» وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى وتتضح هذه المعانى فى الآية الكريمة الواردة فى (سورة البقرة) وفى غيرها حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، حول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام نص عليه مجاهد، قال القرطبى وغيره: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن جرى بن كليب عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر»، وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة. قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله. قال: وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر. وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ قال: استعينوا على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله: ﴿وَالصَّلاةِ﴾ إن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر.

## الصَّبْرُ خُلُقُ أولى العزمِ من الرسل

نعم الصبر خلقٌ كريم من أخلاق الإسلام وهو خلق أولى العزم من الرسل، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، الله عز وجل يأمر رسوله الكريم بأن يصبر على أذى الكفار، أى صبر؟ إنه صبر أولى العزم من الرسل ومن هم أولو العزم من الرسل؟ إنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع. لقد صبر نوح على أذى قومه كما صبر إبراهيم على النار وصبر موسى عليه السلام على عنت وشرك وكفر فرعون كما صبر على إيذاءات بنى إسرائيل له وعبادتهم العجل، وكذلك صبر نبى الله عيسى على عناد قومه وصلف اليهود وإيذائهم له، أما النبى محمد ﷺ فقد صبر على أذى الكفار والمشركين ومطاردتهم له إلى أن أتم الله نوره، وغير أولى العزم من الرسل صبر إسحاق عليه السلام على الذبح، كما صبر يعقوب عليه السلام على فَقْد الولد وذهاب البَصر، أما يوسف عليه السلام فقد صبر على ظلمات البئر وعلى السجن كما صبر على اتهام تلك المرأة له بمراودتها عن نفسها، ويأتى أيوب عليه السلام على رأس هؤلاء جميعًا فى الصبر فلقد صبر على الضر حين أصيب فى بدنه وحين أصيب فى أهله فكشف الله عما به من ضُرٍّ وعوَّضه الله تعالى بأن أعاد له أهله ومثلهم معهم.

الحق تبارك وتعالى يقول مخاطبًا نبيه ورسوله وحبيبه محمداً ﷺ مؤيداً له ومشجعًا له على الصبر على أذى المشركين والكفار واليهود: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة: قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى على تكذيب قومهم لهم.

وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ قد نص الله تعالى على أسمائهم من

بين الأنبياء فى آيتين من سورتى الأحزاب والشورى وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل فتكون ﴿مِن﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم محمد بن الحجاج الحضرمى: حدثنا السرى بن حيان حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى عن مسروق قال: قالت عائشة رضى الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم طواه ثم ظل صائمًا ثم قال: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله». ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ﴿الأحقاف: ٣٥]، كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].. الآية. وقوله جل وعلا: ﴿بَلاغٌ﴾ ، قال ابن جرير يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تقديره وذلك لبث بلاغ، والآخر أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى أى لا يهلك على الله إلا هالك. وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب والله أعلم.

**ومن أمثلة الأخلاق الذميمة السيئة خلق الظلم:**

## الظلــم

والظلم هو ضد العدل ولقد أمر الله عز وجل الإنسان أن يكون عادلاً في كل ما يقول وأن يكون عادلاً فى كل ما يفعل. كما نهى الحق سبحانه وتعالى الناس عن أن يكونوا ظالمين فلا يجب على الإنسان أن يظلم نفسه كما يجب عليه ألا يظلم غيره من البشر أو من المخلوقات الأخرى. فما المقصود إذن بالظلم، ذلك الخلق الذميم المنهى عنه فى الكتاب والسنة؟

جاء فى تعريف لفظة (ظلم) فى مختار الصحاح ج١: (ظ ل م): ظلمه يظلمه بالكسر ظلمًا ومظلمة أيضًا بكسر اللام. وأصل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ويقال من شابه أباه فما ظلم، وفى المثل من استرعى الذئب فقد ظلم والظلامة والظليمة والمظلمة بفتح اللام: ما تطلبه عند الظالم وهو اسم ما أخذه منك وتظلمه أى ظلمه ماله. وتظلم منه: أى اشتكى ظلمه. وتظالم القوم وظلمه تظليمًا نسبة إلى الظلم. وتظلم وانظلم: احتمل الظلم والظِّلِّيم بوزن السِّكِّيت: الكثير الظلم. والظلمة ضد النور وضم اللام لغة وجمع الظلمة ظُلَم وظُلُمات وظُلَمات وظُلْمات بضم اللام وفتحها وسكونها. وقد أظلم الليل وقالوا: ما أظلمه وما أضوأه وهو شاذ. والظلام: أول الليل. والظلماء: الظلمة وربما وصف بها يقال ليلة ظلماء أى مظلمة. وظلم الليل بالكسر ظلامًا: بمعنى أظلم. وأظلم القوم دخلوا فى الظلام. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

## الظُّلْم خُلُق بغيض يودى بصاحبه إلى المهالك

الحق تبارك وتعالى يأمر عباده المؤمنين ألا يظلموا اليتامى وألا يأكلوا أموالهم ظلمًا فإن فعلوا ذلك فقد ارتكبوا ظلمًا وبهتانًا عظيمًا لا يكون عقابه إلا النار والعياذ بالله، يقول تعالى فى سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وحول تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: ولهذا قال إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون نارًا تتأجج فى بطونهم يوم القيامة. وفى الصحيحين من حديث سليمان ابن بلال عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يا رسول الله ما رأيت ليلة أسرى بك؟ قال: «انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير: رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء

بصخرة من نار فتقذف فى أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا »، وقال السدى: يُبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم. وقال ابن مردويه: عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال: «يُبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم نارًا» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية رواه ابن أبى حاتم عن أبى زرعة عن عقبة بن مكرم وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أحمد بن على بن المثنى عن عقبة بن مكرم. قال ابن مردويه: عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحرج مال الضعيفين المرأة واليتيم» أى أوصيكم باجتناب مالهما وتقدم فى سورة البقرة من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية. انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية.[البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

ويقول تعالى فى المنافقين الكافرين الذين كذبوا الرسل فظلموا أنفسهم بكفرهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، يقول ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة: يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل "قوم نوح" وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، "وعاد" كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، "وثمود" كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة، "وقوم إبراهيم" كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات

الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله، "وأصحاب مدين" وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة، "والمؤتفكات" قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم وهى سدوم والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطًا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

• • •

• • •



# الفصل الثالث

## حاجة الفرد والمجتمع إلى الأخلاق

نعم إن الأخلاق الحميدة ضرورة فى حياة الأفراد وهى أكثر ضرورة فى حياة المجتمعات لأن المجتمع الذى يتحلى أبناؤه بتلك الأخلاق الحميدة لا بد أن يكون مجتمعًا سليمًا صحيحًا، مجتمعًا صحيًا تكون لبنته الأساسية الإنسان الخلوق فتسير حياة المجتمع بأسره إلى الأفضل ليكون مجتمعًا مثاليًا. إن نظرة إلى ما يحدث اليوم فى دول الغرب ليثبت صحة هذا الرأى فالفرد فى الغرب أصبح يشعر باغتراب نفسى شديد فى مجتمعه الذى أصبح يغرق فى عالم الماديات دون التقيد بالوازع الأخلاقى ودون التقيد بالوازع الدينى. لقد طغت المادة على كل شىء فى الغرب بل وأصبحت المادة هى كل شىء عندهم والأكثر من ذلك والأغرب أن تظهر هناك نظريات فلسفية تؤكد هذه الآراء المغلوطة.

لقد تبين أن من بين أسباب ما تعانيه المجتمعات الغربية من أمراض وأوجاع وآلام وأسقام ما جلبته المدنية الحديثة من أسباب لتلك الأوجاع وتلك المتاعب والأمراض دون أن تتسلح تلك المجتمعات بالأخلاق الحميدة ودون أن تسلح تلك المجتمعات أفرادها بالوازع الدينى. لقد توقفت كثيراً أمام صحة هذا الرأى وأنا أدرس الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين لطالبات السنة الرابعة بكلية التربية وبالتحديد عندما كنت أشرح لهن الخلفية الفكرية والثقافية فى أوروبا وأمريكا فى النصف الأول من القرن العشرين. لقد رأيت أنه مع بداية القرن العشرين سادت فى الدول الغربية النظرة المادية للأشياء وسيطرت هذه النظره المادية على كل شىء وأكثر من هذا ساد ما يُعرف بنظريات الشكِّية Skepticism (التشكيك فى الدين) واللاأدرية Agnosticism وهو المذهب المنادى بالقول بأنه لا يمكن معرفة شىء عن الله أو وجوده - تعالى الله عما يصفون - وأن الظاهرة المادية فقط هى كل ما يمكن إثباته.

جـاءت هـذه النظريـات نتيجـة لآراء الفيلسـوف البريطانـى ديفيـد هيـوم David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) والفيلسوف الألمانى إيمانويـل كانْت Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وهى كلها فلسفات هدامة ومغلوطة ومضللة قريبة من الفكر والإلحاد Atheism وداعية إليه والعياذ بالله، ولقد أدى ذلك الخواء الروحى والشك العقدى والتقدم الهائل فى العلم وظهور نظريات فلسفية أخرى عديدة ومنها نظريات داروين فـى التطور Darwin's Theory of Evolution ونظريات فرويد Freud ويونج Jung فى علم النفس Psychology ونظريات كـارل مـاركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Friedrich Engels فى الشيوعية Communism. كما أدى نشوب الحرب العالمية الأولى من شهر أغسطس ١٩١٤ إلى نوفمبر ١٩١٨ والتساؤل عن أسبابها ومدى جدواها والخسائر البشرية الباهظة التى سببتها (أكثر من عشرة ملايين قتيل وعشرين مليون جريح من إجمالى خمسة وستين مليونًا شاركوا فى الحرب) كل ذلك أدَّى إلى حالة من فقدان الثقة والإحباط وخيبة الأمل والشعـور بالزيف Illeusionment وضياع القيم وانعدام المُثُل وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى التخبط العقدى وإلى الخوف من كل شىء وإلى إلقاء ظلال الشك حول الثوابت من معتقداتهم، مما دفع الكثير منهم إلى الإصابة بالإحباط واليأس والاكتئاب Depression وإلى الجنون أو الانتحار.

كان من بين أمثلة العديد ممن أقدموا على الانتحار الكاتبة البريطانية الشهيرة فيرجينيا وولف Virginia Woolf (١٨٨٢ - ١٩٤١) مؤلفة رواية (إلى الفنارة) To the Lighthouse ورواية (مسز دالواى) Mrs. Dalloway ورواية (الأمـواج) The Waves والتى كانت أصيبت بعلّة عقلية مزمنة فكانت أن أقدمت على الانتحار بأن أغرقت نفسها فى نهر أوس River Ouse القريب من منزلها بعد أن تركت لزوجها رسالة تقول فيها إنها خشيت هذه المرة من نوبة الجنون القادمة التى قد لا تفارقها.

أما الكاتب الأمريكى إرنست هيمنجواى Ernest Hemingway (١٨٩٩ -

١٩٦١) الذى ضربت شهرته الآفاق مؤلف رواية (العجوز والبحر) The Old Man and the Sea ورواية (وداعًا للسلاح) Farewell to Arms ورواية (لمن يدق الناقوس) ?For Whom the Bell Tolls ورواية (الشمس تشرق أيضًا) The Sun Also Rises والحاصل على العديد من الجوائز ومنها جائزة بوليتزر Pultzer Prize عن روايته (العجوز والبحر) عام ١٩٥٣ وجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٤ فقد أقدم هو أيضًا على الانتحار بأن أطلق النار من مسدسه إلى رأسه فى منزله فى كيتشم. إيداهو بأمريكا فى شهر يوليه عام ١٩٦٢ بعد أن خشى من فقدان الأمان فى شيخوخته بعد أن أصيب هو أيضًا بتلك الحالة من الاكتئاب، وغير فيرجينيا وولف وإرنست هيمنجواى الكثيرون الذين لاقوا نفس المصير بسبب النظرة المادية البحتة للأشياء وبسبب نقص الوازع الدينى والخواء الأخلاقى فى مجتمعاتهم.

إن ضيق الصدر مرده إلى استعجال النتائج ومرده كذلك إلى ما أصاب الإنسان من داء العجلة الذى جلبته المدنية الحديثة بوقعها السريع منذ أن اخترع الإنسان الآلة فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ومنذ أن اخترع البرق والهاتف ووسائل الاتصالات ووسائل المواصلات، فلقد قفز الإنسان فى العصر الحديث فجأة من سرعة الدرّاجة والعربة التى تجرها الجياد إلى سرعة القطار ثم السيارة ومنها مباشرة إلى سرعة الطائرات الأسرع من الصوت كطائرة الكونكورد Concord aircraft تلك الطائرة العملاقة التى تبلغ سرعتها ضعف سرعة الصوت أى أنها تطير أسرع من الصوت بمقدار الضعف وهذه السرعة هى المعروفة باسم (الماخ) Mach، ثم إلى سرعة الصواريخ العابرة للقارات ثم إلى سفن الفضاء. ونتيجة للقفزات التكنولوجية السريعة والهائلة اخترع الإنسان شبكة المعلومات (الإنترنت) Internet فأصبح بإمكانه أن يتصل أو يتراسل أو يتحادث أو يعقد صفقات لتوِّه بأى شخص فى أى بقعة من بقاع العالم، ثم اخترع الهاتف الجوّال The mobile telephone ثم أن توصل العالم المصرى الدكتور أحمد زويل إلى أصغر وحدة زمنية يتوصل إليها الإنسان وهى المعروفة بالـ (فيمتو) ثانية Vimto second وهى الجزء على ألف أو آلاف الوحدات من الثانية وهى أصغر أو أدق وحدة لقياس الزمن.

مع كل قفزة من هذه القفزات التكنولوجية الهائلة حاول الإنسان أن يسابق الزمن في سرعته اللانهائية وأن يكون هو أيضًا أسرع من تلك الوسائل التى هى بدورها أسرع من الصوت بعدة مرات، فازدادت ضربات قلب المرء وازداد فى غدده إفراز مادة الأدرينالين Adrenalin التى تفرزها الغدة الكظرية وهذا بدوره يرفع ضغط دمه فيصيب قلبه بداء ارتفاع ضغط الدم الذى يؤدى بدوره إلى تضخم Enlargement الأوردة Veins والشرايين Arteries وتضخم بطين Ventricle القلب وأذينه Atrium كما يؤدى إلى السكتة القلبية Heart failure or attack والسكتة الدماغية Cerebral apoplexy or stroke الناتجة عن النزيف الداخلى بالمخ Cerebral hemorrhage الناتج بدوره عن ارتفاع ضغط الدم High blood pressure or Hypertension، كما يؤدى ذلك إلى قائمة لا نهاية لها من الأمراض النفسية Psychological diseases والأمراض العصبية Nervous diseases والاضطرابات Anxieties or disorders والتشنجات Convulsions والضغوط العصبية Stresses التى قد تقرِّب المرء من حافة الانهيار العصبى Nervous breakdown أو حتى الانتحار Suicide أو الجنون Madness والعياذ بالله.

أصبح الأفراد فى تلك المجتمعات الغربية يتسابقون وبنفس السرعة التى تتسابق بها وسائل الاتصالات الحديثة ووسائل المواصلات الأسرع من الصوت فأصبح الواحد منهم ينظر إلى ما فى يد غيره فيريد أن يقتنى مثله أو أفضل منه بغض النظر عن الوسيلة وبلا وازع أخلاقى، فأصيبت قلوبهم بكل هذه الأمراض... يا إلهى.. قائمة مطوَّلة من الأمراض وسلسلة لا نهاية لها من سلاسل الداء جلبتها لهم المدنية الحديثة دون أن يتسلح أفراد تلك المجتمعات بالسلاح الربانى الذى وهبه رب العزة جل وعلا ألا وهو سلاح الإيمان وسلاح اليقين بالله وسلاح التحلى بمكارم الأخلاق وسلاح الصبر، وهى أسلحة إذا ما تسلح بها الإنسان كانت كافية لأن تقيه كل تلك الشرور وكل تلك الأمراض والأسقام والأوجاع ومثلها معها.

إن نظرة واحدة على ما يحدث فى الغرب اليوم ليؤكد صدق ما نقول كما يؤكد صحة ذلك الدواء الربَّانى وقوة علاجه الناجع وقوة فاعليته وشفائه وأدائه بإذن الله.

الغرب بما توصل إليه من تلك القفزات العلمية المذهلة لم يكن أفراده مسلحين بتلك الأسلحة الربانية المجانية؛ أسلحة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليقين بالله والصبر على الشدائد فكانت النتيجة التى نسمع عنها ونراها فى وسائل إعلامهم بين حين وآخر: أكبر قدر من الأمراض النفسية والعصبية وأكبر قدر من الأمراض العضوية وأكبر قدر من الخواء الروحى والأخلاقى وأكبر قدر من الشك فى كل شىء ومن الخوف من كل شىء وأكبر نسبة من الانتحار فى العالم وأكبر نسبة من مرضى الجنون، لماذا كل هذا؟ لأن الفرد هناك لم يساير سرعة تقدمه بقوة إيمانه - هذا إذا كان لديه إيمانٌ أساسًا - كما أنه لم يسلِّح نفسه بأسلحة الوقاية الربانية التى تقيه مما يعرف ومما لا يعرف من تلك الأمراض والأوجاع. كان المرء فى الماضى لا يستغرب ولا يستعجب إقدام المنتحر على الانتحار لشدة فقره أو لقلة حيلته أو لعجزه عن سداد ديونه مع استنكارنا لهذه الجريمة الشنعاء، ولكن أن يقدم الغربيون الذين توفرت لديهم الأمور المادية والكماليات المعيشية بدرجة فيها الترف وفيها كثرة السرف فهذا ما فيه العجب الحقيقى.

وأما العلاج أخى المسلم فهو أقرب إلينا من حبل الوريد إنه فى كلمات الله البينات التى نزَّلها على قلب رسوله الكريم لتكون لقلوبنا شفاءً من كل داء ولتكون لنفوسنا دواءً من كل ابتلاء، الحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه المبين فى سورة الإسراء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يذهب ما فى القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفى من ذلك كله وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعداً وكفراً والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

عمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ من مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، والآيات فى ذلك كثيرة، قال قتادة فى قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

كما يقول سبحانه وتعالى فى سورة يونُس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى زاجر من الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]،، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية. [فصلت: ٤٤].

• • •

• • •

# الفصل الرابع

# علاقة الخلق بالسلوك

**تعريف السلوك:** جاء في لسان العرب: (سلك): السلوك مصدر سلك طريقًا: سلك المكان يسلكه سلكًا وسلوكًا سلكه غيره وفيه: وأسلكه إياه وفيه، ويقال: سلكتُ الخيط في المخيط أي أدخلته فيه. أبو عبيد عن أصحابه: سلكته في المكان وأسلكته بمعنى واحد. ابن الأعرابي: سلكت الطريق وسلكته غيري قال ويجوز أسلكته غيري. وسلك يده في الجيب والسقاء ونحوهما يسلكها وأسلكها: أدخلها فيهما. والسِّلْكة الخيط الذي يخاط به الثوب وجمعه سِلْك وأسلاك سُلُوك. والمسلك: الطريق. والسلك: إدخال شيء تسلكه فيه كما تطعن الطاعن فتَسْلُك الرمح فيه إذا طعنته تلقاء وجهه على سجيحته.

على هذا الأساس يكون سلوك الإنسان هو الفعل الإرادي الذي يفعله أو يسلكه بإرادته الحرة أي هو الفعل الإرادي للإنسان على خلاف الخلق الذي هو صفة باطنة داخلية أو سجية من سجاياه الباطنة، وبهذا يكون سلوك الإنسان هو ما يدل من فعل أو تصرف على سجاياه الباطنة فإن الكريم الذي فُطر على الكرم والذي رباه أهله أيضًا على هذا الخلق النبيل نجد أن سلوكه وتصرفه الخارجي يسعيان إلى الكرم ويحتمان عليه ألا يسعى إلا إلى الخير وفي بذل الجود والعون وإلى السخاء لمن احتاج إلى ذلك حتى ولو كان به خصاصة.

وعلى خلاف ذلك نجد أن الإنسان المجبول على الشح والبخل فإن سلوكه وتصرفه الخارجي لا يكونان إلا في اكتناز المال والبخل والشح على نفسه وعلى أهل بيته وعلى المحيطين به فلا تطيعه يده البخيلة الشحيحة على البذل أبداً. وعلى هذا الأساس فإن سلوك الإنسان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأخلاقه فصاحب الخلق الكريم الرفيع لا يكون سلوكه إلا كريمًا رفيعًا كخلقه الكريم الرفيع، وصاحب الخلق السيئ والعياذ بالله لا يكون سلوكه إلا سيئًا مثل خلقه فكيف يكون صاحب الخلق الدنيء

كريمًا؟! هذا لا يجوز لأن العرف والمنطق قد سارا على أن فاقد الشىء لا يعطيه. إن صاحب الخلق القويم الذى يتحلى بأخلاق الإسلام تمنعه تلك الأخلاق النبيلة والخصال الأصيلة من أن يتدنى إلى فعل ما هو دنىء من الأفعال، وكذلك صاحب الخلق السىء لا يستطيع أن يقدِّم سلوكًا نبيلاً لأن أخلاقه الدنيئة كانت قد عودته على الفعال الدنيئة فجبلت نفسه على تلك الفعال، وأما الكريم ذو الخلق الكريم فإنه إن حاول الشيطان أن يحرضه على اقتراف ما يشين سلوكه من الفعال نجد أن نفسه الكريمة وخصاله الطيبة غالبًا ما تقف حائلاً دون اقتراف تلك النواقص من الفعال.

إن عباد الرحمن الذين تحلّوا بالأخلاق القويمة والصفات الكريمة لا تكون فعالهم إلا قويمة كريمة مثل أخلاقهم فهم الذين يمشون على الأرض هونًا وهم الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا وهم الذين يبيتون لربهم سجداً وقياما وهم الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وهم الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون وهم الذين لا يشهدون الزُّور وإذا مروا باللغو مروا كراما، صفات كثيرة من الصفات الحميدة وأخلاق عديدة من الأخلاق النبيلة التى يتحلّى بها عباد الرحمن هى صفات وأوصاف من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة صفة نبيلة اشتملت عليها الآيات البينات التالية من سورة الفرقان والكثير والكثير من آى الذكر الحكيم.

فى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ

أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٥]، يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات البينات: هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ الآية.[الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع حتى رُوى عن عمر أنه رأى شابًا يمشى رويداً فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وائتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا»، وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الآية .قال: إن المؤمنين قوم ذلل ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض وإنهم - والله - لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ولكن أبكاهم الخوف من النار إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ أى إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية.[القصص: ٥٥].

وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى خالد الوالبى عن النعمان بن مقرن المزنى قال: قال رسول الله ﷺ وقد سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ:«أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له: وعليك

السلام قال: لا بل عليك وأنت أحق به» إسناده حسن ولم يخرجوه. وقال مجاهد ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ يعنى قالوا سدادا. وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفًا من القول. وقال الحسن البصرى: قالوا (سلاما) قال: حلماء لا يجهلون إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون.

هؤلاء القوم من عباد الرحمن الذين يتصفون بهذه الصفات النبيلة ويتحلون بهذه الأخلاق الكريمة ماذا يكون جزاؤهم من لدن الحكم العدل الكريم المتعال؟ بالتأكيد يكون جزاؤهم على قدر أخلاقهم وعلى قدر سلوكهم وعلى قدر ارتباط أفعالهم وسلوكهم بأخلاقهم، فمعروف أن الجزاء من جنس العمل. يقول الحق تبارك وتعالى فى الآية الخامسة والسبعين من سورة الفرقان: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ فى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله: لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أى المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهى الجنة قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدى: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى على القيام بذلك، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أى فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون التوقير والاحترام فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبة الدار. ويقول القرطبى يرحمه الله: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ خبر، و ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ فى قول الزجاج على ما تقدم، وهو أحسن ما قيل فيه. وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى؛ وهى إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، وقتل النفس بغير حق، والزنى، والتوبة، وتجنب الكذب، والعفو عن المسيئ، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و﴿الْغُرْفَةَ﴾ الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا. حكاه ابن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى بصبرهم على أمر ربهم: وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن على بن الحسين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر والفاقة فى الدنيا وقال الضحاك: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عن الشهوات.

# الفصل الخامس

## أهم الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق

من أهم الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة فى نفوس النشء ما يلى:

**١- المداومة على الوعظ والنصح والإرشاد:** فإن النفس الإنسانية فى حاجة دائمة للنصح والوعظ والإرشاد وأخذ العبر والدروس المستفادة. فمن النصائح البليغة التى قدمها لنا كتاب الله المبين تلك النصيحة الغالية التى نصح بها لقمان الحكيم ابنه وهو يعظه. وهذه النصيحة جمعت من العظات الكثير والكثير كما جمعت من مكارم الأخلاق ما جعلها نصيحة شاملة جامعة للخصال النبيلة والأخلاق الكريمة فلقد وصَّى لقمان ابنه ألا يشرك بالله وأن يحسن إلى والديه وأن يشكر الله ولهما كما وصاه أن يقيم الصلاة وأن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر وأن يصبر على ما أصابه وألا يصعِّر خده للناس وألا يختال فيمشى فى الأرض مرحًا وأن يقصد فى مشيه وأن يغضض من صوته، ما أجملها وما أنفعها من مجموعة غالية من النصائح المفيدة النافعة. يقول الحق تبارك وتعالى على لسان لقمان عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩]

حول معاني هذه الآيات البينات يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده وهو لقمان بن عنقاء بن سدون واسم ابنه ثاران فى قول حكاه السهيلى، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر وأنه آتاه الحكمة وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أى هو أعظم الظلم، قال البخارى: حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله: «إنه ليس بذلك ألا تسمع لقول لقمان: يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» ورواه مسلم من حديث الأعمش به ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن.

وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤] قال مجاهد: مشقة وهن الولد وقال قتادة: جهداً على جهد وقال عطاء الخراسانى: ضعفًا على ضعف وقوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] أى تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال فى الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ليذكر الولد بإحسانه المقدم إليه كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] أى فإنى سأجزيك على ذلك أوفر جزاء. قال ابن أبى حاتم: حدثنا زرعة حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبى فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنى رسول رسول الله ﷺ إليكم

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن وخلود فلا موت.

وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أى إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفًا أى محسنًا إليهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبرانى فى كتاب العشرة: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فىَّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا﴾ الآية. قال: كنت رجلاً براً بأمى فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى فيقال: يا قاتل أمه فقلت: لا تفعلى يا أمه فإنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يومًا وليلة أخرى لا تأكل قد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشىء فإن شئت فكلى وإن شئت لا تأكلى فأكلت.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أى إن المظلمة أو الخطيئةلو كانت مثقال حبة خردل وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله: "إنها" ضمير الشأن والقصة وجوز على هذا رفع مثال والأول أولى وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أى أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط وجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السماوات والأرض فإن الله يأتى بها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات

ولا فى الأرض. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] أى لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، "خبير" بدبيب النمل فى الليل البهيم والظاهر والله أعلم أن المراد أن هذه الذرة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه. كما قال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان».

ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى بحدودها وفروضها وأوقاتها. ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا بد أن يناله أذى فأمره بالصبر وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء فى الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله» قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: "ولا تصعر خدك للناس" يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وكذا روى العوفى وعكرمة عنه وقال مالك عن زيد بن أسلم: "ولا تصعر خدك للناس" لا تتكلم وأنت معرض، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الأصم وأبى الجوزاء وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم، وقال إبراهيم النخعى يعنى بذلك التشدق فى الكلام. والصواب القول الأول قال ابن جرير: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها حتى تفلت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر ومنه قول عمرو بن حى التغلبى:

وكنا إذا الجبَّار صعَّر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما

وقال أبو طالب فى شعره:

وكنا قديمًا لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

وقوله: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، إن تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى مختال معجب فى نفسه فخور أى على غيره وقال تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧]، عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال: «إن الله لا يحب كل مختال فخور» فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ويعجبنى شراك نعلى وعلاقة سوطى فقال: «ليس ذلك الكبر إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس».

وقوله: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى امش مشيًا مقتصداً ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطًا بين بين. وقوله: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أى لا تبالغ فى الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير أى غاية مَنْ رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ومع هذا هو بغيض إلى الله، وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء العائد فى هبته كالكلب يقئ ثم يعود فى قيئه» وقال النسائى عند تفسير هذه الآية عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانًا»، وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة من طرق عن جعفر بن ربيعة به وفى بعض الألفاظ بالليل فالله أعلم. فهذه وصايا نافعة جداً وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة.

٢- ومن الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة التربية الخلقية:
ونقصد بها تربية النشء على مكارم الأخلاق وتعويدهم عليها فكما سبق وأشرنا فإن الأخلاق منها ما هو طبيعى فطرى ومنها ما هو مكتسب يأتى بالتعليم والتدريب، وإن الإنسان يولد على الفطرة ويكون كالصفحة البيضاء ثم يجىء دور الوالدين فى ملء هذه الصفحة البيضاء فإن لم يملؤها بالصالح امتلأت بالطالح، فحرى بالآباء أن

يسارعوا إلى ملء فراغ هذه الصفحة الطاهرة البيضاء من قلوب وعقول أبنائهم وبناتهم بكريم الأخلاق وطيب الخصال وطيب الفعال. في ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، حول تفسير هذه الآيات البينات يقول ابن كثير يرحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» أخرجاه من رواية أبي هريرة وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حماد المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين لها وهداها إلى ما قدر لها قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بين لها الخير والشر وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثوري. وقال سعيد بن جبير ألهمها الخير والشر وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها وقال ابن جرير عن يحيى بن يعمر عن أبي الأسود قال: قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي عليهم قال: فهل يكون ذلك ظلما؟ قال: ففزعت منه فزعًا شديداً قال: قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسألون قال: سددك الله إنما سألتك لأخبر عقلك أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم» قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها»، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ رواه أحمد ومسلم من حديث عزرة بن ثابت به.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أى بطاعة الله كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وكقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أى دسسها أى أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه وقد خاب من دس الله نفسه كما قال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس، وقال بن أبى حاتم: حدثنا أبى زرعة قالا: حدثنا سهل بن عثمان حدثنا أبو مالك يعنى عمرو بن الحارث عن عمرو بن هشام عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قول الله عز وجل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ قال النبى ﷺ: «أفلحت نفس زكاها الله عز وجل»، وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها». وقال الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن. رواه مسلم من حديث أبى معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن حارث وأبى عثمان النهدى عن زيد بن أرقم به.

٣- كذلك فمن الوسائل التى تساعد فى تربية الأخلاق الكريمة **إرشاد النشء إلى ضرورة مصاحبة الأخيار وإلى ضرورة تجنب مصاحبة الأشرار**: فالمرء كما قال رسول الله ﷺ على دين خليله. جاء فى المستدرك على الصحيحين: عن موسى بن هارون أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

كذلك قال الشاعر:

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قرينِه      فكــلُّ قريــنٍ بالمُقَــارَنِ يقتدى

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، وروى عن ابن مسعود أنه قال: اعتبروا الناس بإخوانهم.

لقد نصح رسول الله ﷺ أبناء أمته أن يتخيروا جلساءهم وأن يجالسوا الجليس الصالح وأن يحذروا من الجليس السوء فإن عاقبة مجالسة أصدقاء السوء وخيمة، وأعطى رسول الله ﷺ فى تصوير بليغ مثلاً للجليس الصالح وهو حامل المسك الذى إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة كما أعطى مثلاً بليغًا للجليس السوء بنافخ الكير الذى إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة. فقد جاء فى صحيح مسلم: عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة». وذكر أبو بكر البزاز عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله أى جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله». وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار وأنشد:

وصاحبْ خيارَ الناسِ تنجُ مسلما      وصاحبْ شرارَ الناسِ يومًا فتندما

٤- كذلك فمن الوسائل التى تعين على تربية الأخلاق فى النفوس الأخذ بمبدأ **الثواب والعقاب**: وبخاصة عند تربية الصغار من النشء فالأمر يحتم ضرورة المعاقبة لمن يتجاوز أو يتهاون فى الالتزام بالتحلى بالخلق الحسن كما يستوجب الأمر مثابة من يلتزم بالتحلى بالأخلاق النبيلة. الحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه المبين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: قال البخارى

عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طيلها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنات. ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كان آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له وهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياء ونواء فهى على ذلك وزر» فسئل رسول الله عن الحمر فقال: ما أنزل الله شيئًا إلا هذه الآية الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ رواه مسلم من حديث زيد ابن أسلم به. وقال الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ قال: «حسبى لا أبالى أن أسمع غيرها». وفى صحيح البخارى عن عدى مرفوعًا: «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة»، وله أيضًا فى الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن سرغ من دلوك فى إناء المستسقى ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»، وفى الصحيح أيضًا: «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» يعنى ظلفها وفى الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف محرق»، وقال الإمام أحمد: عن المطلب بن عبد الله عن عائشة أن رسول الله قال: «يا عائشة استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان» تفرد به أحمد. وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. وقال الإمام أحمد: عن عوف بن الحارث بن الطفيل أن عائشة أخبرته أن النبى ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا» ورواه النسائى وابن ماجة من حديث سعيد بن مسلم بن بانك به، وعن أبى قلابة عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله ﷺ إنى أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر ما

رأيت فى الدنيا مما تكره بمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة».

قال ابن جرير عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق ﷺ قاعد فبكى حين أنزلت فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكينى هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أممًا يخطئون ويذنبون فيغفر لهم». عن أبى سعيد الخدرى قال: لما نزلت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ قلت: يا رسول الله إنى لراء عملى؟ قال: «نعم» قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: «نعم» قلت: الصغار الصغار؟ قال: «نعم» قلت: واثكل أمى، قال: «أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعنى إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء والسيئة بمثلها أو يعفو الله ولن ينجو أحد منكم بعمله» قلت: ولا أنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة».

٥- ومن الوسائل التى تعين على تربية الأخلاق فى النفوس أيضًا **التأسى بالأسوة الحسنة**: لقد كان لنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى التحلى بمكارم الأخلاق. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، في تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

# الفصل السادس
# خصائص الأخلاق الإسلامية

الأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الحميدة التي لها من الصفات أو الخصائص ما يجعلها متفردة متميزة ومن هذه الصفات أو الخصائص أو المميزات:

## (أ) شمولية الأخلاق الإسلامية:

من أهم خصائص الأخلاق الإسلامية شمولية هذه الأخلاق وصلاحيتها لكل زمان ومكان وكل البشر في كل المجتمعات، فدين الإسلام هو الدين الخاتم الذي أنزله الله عز وجل ليكون للناس سراجًا منيراً وليكون خاتمًا لكل الديانات ولهذا فلقد اشتمل الإسلام على كل ما ينفع البشر في كل زمان ومكان، ولم يترك ذلك الدين القيم شاردة ولا واردة من أمور البشر التي تصلح حالهم في دنياهم وفي آخرتهم إلا وقد عالجها العلاج الناجع الكامل الوافر الشامل. الحق تبارك وتعالى ارتضى للبشر هذا الدين الخاتم فأكمله لنا وأتم علينا نعمه الظاهرة والباطنة وهو الذي ارتضى لنا هذا الدين الإسلامي الحنيف دينًا، فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فهذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه.

ولم يقتصر اهتمام شريعتنا الغراء والأخلاق الإسلامية السمحة بالإنسان فى كل زمان ومكان فحسب بل وتعدت الإنسان فاهتمت إضافة إلى الإنسان بالجماد والزرع والحيوان حتى أن رجلاً قد غفر له ربه فى هذه الشريعة السمحاء حينما سقى كلبًا وجده يلهث من القيظ فملأ له خفه ماء وسقاه، وأن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض: عن أبى هريرة ﵁ عن النبى ﷺ أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها فلم تدعها تصيب من خشاش الأرض ولم تطعمها ولم تسقها حتى ماتت. ورسول الله ﷺ هو الرحمة المهداة وهو النعمة المسداة أرسله الله ليكون رحمة للناس أجمعين وليس لأمة بعينها أو لشعب بعينه بل للعالمين أجمع فرسالة الإسلام هى الرسالة الشاملة التامة الكاملة المبعوثة للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم لا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وهى الرسالة الخاتمة الصالحة للبشر جميعًا فى كل زمان ومكان. والأخلاق الإسلامية التى يتخلق بها أبناء هذه الديانة السماوية الشاملة لكل البشر هى أخلاق شمولية أيضًا تصلح للفرد وللمجتمع فى كل زمان وفى كل مكان. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

### (ب) إقناعها للعقل والعاطفة:

من خصائص أخلاق الإسلام أيضًا أنها هى الأخلاق التى اهتمت بالعقل والقلب والعاطفة والوجدان معًا فلم تهتم بجانب وتهمل جانبًا ولم ترجِّح جانبًا على آخر فالإنسان فى شريعتنا الغراء مجموعة مركبة من العقل والعواطف فاهتمت بهذه الجوانب جميعها.

### (ج) المسئولية الأخلاقية:

من خصائص هذه الأخلاق الإسلامية النبيلة أيضًا أنها تلزم معتنقيها سواء كانوا أفراداً أو جماعات بضرورة التقيد بالإطار العام للدين الإسلامى الحنيف فتقع المسئولية الأخلاقية على الفرد، كما تقع على الجماعة والمسئولية الأخلاقية هى

بالتالى حكم على الأعمال الظاهرة وعلى الأعمال الباطنة للفرد والجماعة. الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ ومن يَعْمَلْ من الصَّالِحَات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، ويقول تبارك وتعالى فى سورة النساء: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَات من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]. وحول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية. لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما فى الدنيا وهو الأجود له وإما فى الآخرة والعياذ بالله من ذلك ونسأله العافية فى الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة شرع فى بيان إحسانه وكرمه ورحمته فى قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة التى فى ظهر نواة التمرة.

### (د) المسئولية الأخلاقية عن الأفعال والنوايا:

كما تقع المسئولية الأخلاقية على الأفعال التى يأتى بها الإنسان فإنها أيضًا تقع على النوايا الكامنة فى وجدانه يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠]، عن هشام بن عروة عن أبيه أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالد بن حزام إلى أرض الحبشة فنهشته حية فى الطريق فنزلت فيه: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم التيمى عن علقمة بن أبى وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» وهذا عام فى الهجرة وفى جميع الأعمال ومنه الحديث الثابت فى الصحيحين فى الرجل الذى قتل تسعة

وتسعين نفسًا ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالمًا هل له من توبة فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائبًا وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها فأمر الله هذه أن تقترب من هذه وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفى رواية أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التى هاجر إليها.

### (هـ) الرقيب هو الله تعالى:

من خصائص هذه الأخلاق الإسلامية النبيلة أن الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب على ما يقدم الإنسان وما يؤخر وهو سبحانه وتعالى الرقيب على ما يبدى الإنسان وما يبطن وهو سبحانه وتعالى الرقيب على أفعال المرء وعلى نواياه. يقول الحق تبارك وتعالى فى أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، وحول معنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير: يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه وهى عبادته وحده لا شريك له ومنبهًا لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة وهى آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهى حواء عليها السلام، وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ أى واتقوا الله بطاعتكم إياه. وقال الضحاك: واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والضحاك والربيع وغير واحد.. وقرأ بعضهم "والأرحام" بالخفض على العطف على الضمير فى به أى

تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦، البروج: ٩]. وفى الحديث الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب.

### (و) الإنسان جسد وروح:

أخلاق الإسلام الكريمة السمحة لم تهتم بالجانب الروحى العقدى فقط على حساب الجانب الجسدى كما أنها لم تهتم بالجانب الجسدى للإنسان أكثر من اهتمامها بالجانب الروحى ولكنها عاملت الإنسان على أنه خليط مركب متعادل من الجانبين الروحى والجسدى، فأوصت الإنسان أن يهتم بحاجاته الجسدية وألا ينسى نصيبه من الإشباعات الروحية والعكس بالعكس؛ فلقد أوصت أن يهتم بالجانب الروحى ولا يهمل متطلباته الجسدية المشروعة وكانت بهذا أخلاقًا وسطية سمحة.

### (ز) الصلاحية لكل الأزمنة وكل الأمكنة وكل الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم:

اختار الله سبحانه وتعالى دين الإسلام ليكون الدين الخاتم للبشر ليكمل الديانات السماوية السابقة واختار نبيه محمداً ﷺ ليكون خاتمًا للأنبياء والمرسلين ولهذا كان دين الإسلام الدين الأكمل والأشمل والأصلح لكل البشر على اختلاف ألوانهم ومواطنهم وفى كل زمان ومكان. بهذا تصبح أخلاق الإسلام هى الأخلاق الأكمل والأشمل والتى تسعد الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ويقول تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

### (م) العقاب والثواب فى كل من الدارين الدنيا والآخرة:

إن الله ببالغ عدله وواسع علمه واطلاعه يرسل الرسل لهداية البشر فمن اهتدى بهداهم واستن سنتهم وسار على طريق النور الذى أُرسلوا به وعمل عملاً صالحًا كان ثوابه كبيراً فى الدنيا وفى الآخرة ومن يعمل سوءاً كان عقابه وخيمًا فى الدنيا أيضًا وفى الآخرة، هكذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا وفى الآخرة. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النساء: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ويقول تعالى فى سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦] بهذا يتحقق الجزاء العادل فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

• • •

• • •

# الفصل السابع

## ارتباط الأخلاق الإسلامية بالعقيدة وبالعبادات

إن التمسك بالأخلاق الحميدة النبيلة والتحلّى بها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدى تمسك المرء بعقيدته فإن صحت عقيدة المرء صحت أخلاقه والعكس صحيح فإذا ضعف إيمان المرء أو ضعفت عقيدته ضعف إيمانه وانحدرت أخلاقه وسلوكه فهما - الأخلاق القويمة والعقيدة القوية الثابتة المتينة - صنوان يسيران متوازيين فى خطين مستقيمين إذا صلح أحدهما صلح الآخر وإذا فسد أحدهما فسد بالضرورة الآخر.

والأخلاق الإسلامية النبيلة كما ترتبط بالعقيدة فإنها أيضًا ترتبط بالعبادات ارتباطًا وثيقًا فمن المعقول ومن الطبيعى أن يحافظ صاحب الأخلاق الحميدة على أداء فروض عبادته كما أمره رب العزة وأن ينتهى بنواهيها كما نهاه عنها الشرع الإسلامى، ومن غير المعقول أن يكون لدى غير الملتزم أخلاقيًا أى ولاء لدينه أو لوطنه أو حتى لقومه الذى يعيش بينهم، فمن أين يتأتى له أن يكون وفيًا وهو لا يعرف معنى الوفاء ولا يتحلّى بخلق الوفاء؟ وكيف يكون نبيلاً وهو لم يجرب أن يكون نبيلاً مرة واحدة طول حياته؟ وكيف يكون حليمًا وهو لا يعرف للحلم معنى ولا طريقًا؟ وكيف يكون أمينًا وهو أصلاً لا يعرف ماذا تعنى الأمانة؟ إن هذا الغير ملتزم أخلاقيًا هو بالضرورة غير ملتزم عقديًا وهو غير ملتزم فى أداء واجبات العبادة لله عز وجل. إن هذا وأمثاله هم والعياذ بالله الذين ضلوا وأضلوا فاللهم اهدهم بهداك إلى صراطك المستقيم.

أولئك القوم المنافقون المراؤون وهم ضعيفو الإيمان لأنهم ضعيفو الأخلاق والسلوك، وأولئك هم من الذين ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله فى تفسير

هذه الآيات البينات من سورة الماعون: قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعنى المنافقين الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر ولهذا قال «للمصلين» الذى هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون إما عن فعلها بالكلية كما قال ابن عباس وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعًا فيخرجها عن وقتها بالكلية كما قاله مسروق وأبو الضحى. وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذى قال: "عن صلاتهم ساهون" ولم يقل "فى صلاتهم ساهون". وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملى كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» فهذا أخر صلاة العصر التى هى الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضًا ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلا" ولعله إنما حمله على القيام إليها مراآة الناس لا ابتغاء وجه الله فهو كما إذا لم يصل بالكلية. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢].

وسلوك المسلم مرآة لعمق إيمانه فعلى قدر صدق المرء مثلاً وعلى قدر سلوكه وأخلاقه يُقاس مدى إيمانه فبالصدق استطاع أسلافنا الكرام أن يغزوا مشارق الأرض ومغاربها، فدخل الناس فى دين الله أفواجًا فدخل العديد من سكان دول شرق وجنوب شرق آسيا وشمال وغرب ووسط أفريقيا الإسلام بسلوك أجدادنا الذين تحلوا بالصدق فكان التجار منهم يتعاملون مع أهالى تلك البلاد بالكلمة الصادقة، مما دفع أهالى تلك البلاد أن تتساءل عن كنه هذا الدين الإسلامى الحنيف الذى خرَّج من مدارسه هؤلاء القوم الصادقين فدخلوا فى دين الله دون أن تذهب إليهم الجيوش

الجرارة، هكذا يخبرنا التاريخ. يقول الحق تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩] ، ويقول العلامة ابن كثير يرحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبرى من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم، ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثًا عن أنس فقال: عن أنس مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول: سلوني سلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضا فيقول رضاى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى فسلوني أعطكم فيسألونه الرضا قال فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى»، وقوله: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذى لا أعظم منه كما قال تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

والحق تبارك وتعالى حينما يأمر المسلمين أن يكونوا عادلين فإنما هو سبحانه يأمرهم بذلك حتى تستقيم أمور حياتهم فبالعدل يسعد البشر ويشعرون بالأمان وتستقيم أمور الأوطان فالظلم ظلمات وضلال مبين والعدل نورٌ وصلاح ويقين، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، مجموعة من الأوامر بالتحلى بمكارم الأخلاق ومنها العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى فما أجملها من أخلاق إسلامية كريمة وما أنبلها من صفات إسلامية رفيعة وكذلك ينهى سبحانه بمجموعة من النواهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يقول ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة: يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة

ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وقال سفيان بن عيينة: العدل فى هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته؛ وقوله: ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى يأمر بصلة الأرحام كما قال: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ولهذا قيل فى الموضع الآخر: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأما البغى فهو العدوان على الناس وقد جاء فى الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وقال الشعبى عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية. رواه ابن جرير وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية. ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها». وقال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلين فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت

وما أنت؟ فقال النبى ﷺ: «أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية. قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطًا فى مضر - أى شريفًا - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا.

• • •

• • •

# الفصل الثامن

# حماية الأخلاق الإسلامية

كان من فضل الله على أمة الإسلام أن شرع الحدود لحماية الدين ولحماية الأخلاق ولحماية النفس والعرض والمال والعقل. والحق تبارك وتعالى قد وضع دستوره الإلهى العظيم لحماية الأخلاق الإسلامية الكريمة من خلال مجموعة هائلة من الأوامر لجماعة المسلمين وكذلك من خلال مجموعة أخرى من النواهى. فالأوامر الإلهية لعباده المؤمنين بإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، كل هذه الأوامر إنما وُضعت لعبادة الله وحده وللخشوع والخضوع لإرادته وللحفاظ أيضًا على الأخلاق. لقد شرع الشارع الأعظم من الشرائع ما تُحمى به الأخلاق ومنها:

**(١) عقوبة السرقة:** فى عقوبة السرقة التى حددها الشارع الأعظم حماية للأخلاق فلحماية المجتمع من جرائم السرقة شرع الإسلام عقوبة رادعة للسارق والسارقة ولم يستثن من تلك العقوبة شريفًا أو ثريًا قويًا أو ضعيفًا، وكان لنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حينما أقسم لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] ويقول العلامة ابن كثير يرحمه الله تفسيراً لهذه الآية الكريمة: يقول تعالى حاكمًا وآمراً بقطع يد السارق والسارقة وروى الثورى أن ابن مسعود كان يقرؤها "والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما" وهذه قراءة شاذة وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقًا لها لا بها بل هو مستفاد من دليل آخر وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية فقرر فى الإسلام وزيدت شروط أخر كما سنذكر إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه

وزيادات هى من تمام المصالح ويقال: إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش قطعوا رجلاً يقال له: دويك مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ويقال: سرقه قوم فوضعوه عنده وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصابًا ولا حرزاً بل أخذوا بمجرد السرقة وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفى قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ويحتمل غير ذلك فالله أعلم، وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده»، وأما الجمهور فاعتبروا النصاب فى السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة - فمتى سرقها - أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم أخرجاه فى الصحيحين قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضي الله عنه فى أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت فى ذلك وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقًا سرق فى زمن عثمان أترجة فأمر بها عثمان أن تقوَّم فقومت بثلاثة دراهم - صرف اثنى عشر درهمًا - فقطع عثمان يده.

قال الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا يدها» فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة دينار فقال: «اقطعوا يدها» فقطعت يدها اليمنى فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» فأنزل

الله فى سورة المائدة: ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩] ، وهناك المرأة المخزومية التى سرقت وحديثها ثابت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عروة عن عائشة أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل؟ فقال له أسامة: استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإنى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ وهذا لفظ مسلم. سبحان الله العلى العظيم الذى أرسل فينا هذا النبى الأمى ليعلمنا أمور ديننا وليهدينا إلى صراط الله المستقيم وليضع لنا الأسس والمبادئ التى إذا استمسكنا بها لن نضل بعده أبداً وذلك فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

(٢) **عقوبة الزنا حماية لخلق العفة:** شرع الحق تبارك وتعالى عقوبة مشددة للزانى والزانية حماية للعفة حيث يقول تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، وفى تفسيره لهذه الآية المباركة يقول ابن كثير يرحمه الله يقول تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ يعنى هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد وللعلماء فيه تفصيل ونزاع فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذى لم يتزوج أو محصنًا وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عامًا عن بلده عند جمهور العلماء خلافًا لأبى حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام إن شاء

غرب وإن شاء لم يغرب وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابنى هذا كان عسيفًا - يعنى أجيراً - على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا إليها فاعترفت فرجمها.

وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج فأما إذا كان محصنًا وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك: حدثنى ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف. أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولا.

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: "أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهى محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال: جلدتها لكتاب الله ورجمتها

بسنة رسول الله ﷺ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم». وقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أى لا ترأفوا بهما فى شرع الله، وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك، قال مجاهد: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح وقد جاء فى الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب» وفى الحديث الآخر: «لحد يقام فى الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا» وقيل المراد: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغى من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: رحمة فى شدة الضرب وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح وقال سعيد بن أبى عروبة عن حماد ابن أبى سليمان: يجلد القاذف وعليه ثيابه والزانى تخلع ثيابه ثم تلا: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقلت: هذا فى الحكم قال: هذا فى الحكم والجلد يعنى فى إقامة الحد وفى شدة الضرب وقال ابن حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمرو عن ابن أبى مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع: أراه قال ظهرها قال: قلت: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: يا بنى ورأيتنى أخذتنى بها رأفة إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها فى رأسها وقد أوجعت حين ضربتها. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحًا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال: «ولك فى ذلك أجر»، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيَيْن إذا جلدا بحضرة الناس فإن ذلك يكون أبلغ فى

زجرهما وأنجع فى ردعهما فإن فى ذلك تقريعًا وتوبيخًا إذا كان الناس حضورا. قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى علانية ثم قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد وقال عطاء بن أبى رباح: اثنان وبه قال إسحاق بن راهوية وكذا قال سعيد بن جبير «طائفة من المؤمنين» قال: يعنى رجل فصاعداً وقال الزهرى: ثلاث نفر فصاعداً وقال عبد الرزاق: حدثنى ابن وهب عن الإمام مالك فى قوله: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة وقال الحسن البصرى: عشرة وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال: سمعت نصر ابن علقمة يقول فى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

**(٣) حمايةً وصيانةً لخلق العدل شرع الحق تبارك وتعالى عقوبة القصاص،** يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، وتفسيراً لهاتين الآيتين يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول الله تعالى كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون حُركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم فكان إذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذا قتل القرظى النضرى قتل وإن

فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى فأمر الله بالعدل فى القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغيًا فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية فى العمد وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعنى فمن ترك له من أخيه شىء يعنى أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو "فاتباع بالمعروف" يقول: فعلى الطالب اتباع المعروف إذا قبل الدية، "وأداء إليه بإحسان" يعنى من القاتل من غير ضرر ولا معك يعنى المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدى المطلوب بإحسان وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو. وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد وهكذا روى ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع ابن أنس والسدى ومقاتل بن حيان أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد ابن إسحاق عن الحارث بن فضيل عن سفيان بن أبى العوجاء عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدًا فيها» رواه أحمد وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لا أعافى رجلاً قتل بعد أخذ الدية» يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس وفى الكتب المتقدمة: القتل أنفى

للقتل فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

(٤) **عقوبة قطع الطريق وترويع الآمنين:** حماية للأمن ونشراً له بين الناس شرع الدين الحنيف عقوبة قطع الطريق المعروفة بحد الحرابة، فى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله تفسيراً لهذه الآية الكريمة: وقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ الآية. المحاربة هى المعاداة والمخالفة وهى صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين كما قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسن بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصرى قالا: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - إلى - فاعلموا أن الله غفور رحيم" نزلت هذه الآية فى المشركين فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصابه. رواه البخارى ومسلم من حديث أبى قلابة عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية

قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: «ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعى وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث فى آثارهم فأدركوا فجىء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم ثم نبذوا فى الشمس حتى ماتوا.

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك منها ما رواه من طريقين عن سلام بن أبى الصهباء عن ثابت عن أنس بن مالك قال: سألنى عنه الحجاج قال: أخبرنى عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ قال: قلت: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم وقد اصفرت ألوانهم وضمرت بطونهم فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخمصت بطونهم عمدوا إلى الراعى فقتلوه واستاقوا الإبل فأرسل رسول الله ﷺ فى آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدى قوم وأرجلهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا بحال ذود من الإبل فكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس. ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. وقال أبو جعفر ابن جرير حدثنا أبو على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا يزيد بن لهيعة عن أبن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت فى أوائل النفر العرنيين وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية: من شهر السلاح فى فئة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله كذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وروى ذلك كله ابن جعفر ابن جرير

وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله. وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي: أنبأنا إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس في قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يُصلبوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض وقد رواه ابن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن عطية عن ابن عباس بنحوه.

**(٥) شرع الشارع الحكيم تحريم الخمر حمايةً للعقل:** كان من لطف الله بنا أن شرع تحريم الخمر حماية للعقل من التلف وحفظًا للمجتمع من شرورها فهي أم الكبائر أو هي أم الخبائث كلها والقرآن الكريم به أكثر من آية تحذرنا معشر المسلمين من مغبة شرب الخمر وتبين لنا آثارها المدمرة على الفرد وعلى المجتمع. كذلك فإن السنة النبوية المطهرة لم تترك مثل هذا الموضوع المهم بل تناولته بكثير من التفصيل والبيان. في ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وحول تفسير هذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب. "ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر" قال الإمام أحمد عن أبي وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة قال: حُرِّمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى آخر الآية فقال الناس: ما حرما علينا إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يومًا من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمام الصحابة في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان الناس يشربون حتى

يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، قالوا: انتهينا ربنا وقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فرسهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ [المائدة: ٩٣] إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم» انفرد به أحمد وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبي اسحاق عن أبي ميسرة عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا في الأمر بيانًا شافيًا نزلت الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال حي على الصلاة نادى: لا يقربن الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التي في سورة المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر انتهينا، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر ابن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل. وفي رواية حماد بن زي عن ثابت عن أنس قال: كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادي قال: اخرج فانظر فإذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت فجرت في سكك المدينة قال: فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم قل فلان وفلان وهي في بطونهم قال فأنزل الله ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الآية. حديث آخر: "قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز عن أبي طعمة مولاهم وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه لعنت

الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها». حديث آخر: قال الشافعي رحمه الله أنبأنا مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» أخرجه البخاري ومسلم من حديث مالك به وروى مسلم عن أبي الربيع عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يسر بها في الآخرة». وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأسًا فقال: زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

• • •

• • •

# الباب الثانى

## أخلاق الرسول ﷺ

# الفصل الأول

## قبس من أخلاق الرسول ﷺ

## كما جاء في القرآن الكريم

كان رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق، وكان صلوات الله وسلامه عليه القدوة والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، فما من خلق كريم إلا وتحلّى به صلوات الله وسلامه عليه، وما كانت من صفة كريمة إلا وكان له النصيب الأكبر والأوفى فى التحلى بها، لقد كان الصادق الأمين فى طفولته وفى شبابه قبل البعثة وكان الكريم الحليم الرؤوف الرحيم بالمؤمنين فى شيبته وكان فوق كل هذا وذاك ذا الخلق العظيم كما نعته رب العزة تبارك وتعالى. لقد أدبه ربه كما قال صلوات الله وسلامه عليه فأحسن تأديبه يقول ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى». لقد روى عنه ﷺ أنه قال: «أدبنى ربى تأديبًا حسنًا إذ قال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فلما قبلت ذلك منه قال: إنك لعلى خلق عظيم» كيف لا وهو القدوة وكيف لا وهو المثل الأعلى الذى سيقود الأمة والذى سيقتفى أثره ويتحلى بأخلاقه ويتصف بصفاته ويسير على هداه أتباعه وأحبابه المؤمنون الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا بالدين القويم الذى أنزله رب العزة على قلب نبيه ليكون للدنيا هدى وسراجًا منيراً. لقد كان صلوات ربى وسلامه عليه يتصف بكل صفات النبل والخير والسماحة والحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل وكفاه أن كان خلقه صلوات الله وسلامه عليه القرآن.

لقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الحلم ولين الجانب يقول فى ذلك رب العزة تبارك وتعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وفى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى مخاطبًا رسوله ممتنًا عليه وعلى المؤمنين فيما الان به قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم لفظه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى بأى شىء جعلك الله لهم لينًا لولا رحمة الله بك وبهم. وقال قتادة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم وما صلة والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: "فبما نقضهم عهدهم" وبالنكرة كقوله: "عما قليل" وهكذا ههنا قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى برحمة من الله. وقال الحسن البصرى: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال الإمام أحمد حدثنا حيوة حدثنا بقية حدثنا محمد بن زياد حدثنى أبو راشد الحرانى قال: أخذ بيدى أبو إمامة الباهلى وقال: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا أمامة إن من المؤمنين من يلين له قلبى» تفرد به أحمد ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ والفظ الغليظ المراد به ههنا غليظ الكلام لقوله تعالى بعد ذلك "غليظ القلب" أى لو كنت سىء الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم كما قال عبد الله بن عمرو: إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾. ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم وشاورهم فى أُحُد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو فأشار جمهورهم

بالخروج إليهم فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارى المشركين فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال، وقال ﷺ فى قصة الإفك: «أشيروا علىَّ معشر المسلمين فى قوم أبنوا أهلى ورموهم وايم الله ما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن؟ والله ما علمت عليه إلا خيرا» واستشار عليًا وأسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها، فكان ﷺ يشاورهم فى الحروب ونحوها. وروى ابن مردويه عن على بن أبى طالب قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال: «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم». وقال ابن ماجة عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «المستشار مؤتمن». ورواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائى من حديث عبد الملك بأبسط من هذا. ثم قال ابن ماجة: عن أبى عمرو الشيبانى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن» تفرد به. وقال أيضًا عن أبى الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه» تفرد به أيضًا وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى نبل الأخلاق وكرمها فلقد وصفه رب العزة تبارك وتعالى أنه لعلى خلق عظيم واللام هنا المضافة لـ (على) تفيد التأكيد على كرم أخلاق النبى صلوات الله وسلامه عليه، فى ذلك يقول رب العزة تبارك وتعالى مخاطبًا نبيه ذا الخلق الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة: وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال العوفى عن ابن عباس وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدى والربيع بن أنس وكذا قال الضحاك وابن زيد. وقال عطية لعلى أدب عظيم وقال معمر عن قتادة سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن تقول كما هو فى القرآن. وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ذكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت:

ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعد بن هشام قال سألت عائشة فقلت أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن فقلت: نعم، فقالت: كان خلقه القرآن هذا مختصر من حديث طويل وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله. ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهيًا سجية له وخلقًا تطبعه وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته، وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكًا ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. وقال البخاري حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا إبراهيم بن يونس عن أبيه عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خلقًا ليس بالطويل ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب شامل، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيء قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل. وقال الإمام أحمد حدثنا سعيد بن منصور حدثنا عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» تفرد به.

ويقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: فيه مسألتان، **الأولى**: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على خلق، على دين

عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خلقه كان القرآن. وقال على رضى الله عنه وعطية: هو أدب القرآن. وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم. وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهى عنه مما أنهى الله عنه. وقيل: أى إنك على طبع كريم. الماوردى: وهو الظاهر. وحقيقة الخلق فى اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقًا؛ لأنه يصير كالخلقة فيه. وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم (بالكسر): السجية والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخيم: اسم جبل. فيكون الخلق الطبع المتكلف. والخيم الطبع الغريزى. وقد أوضح الأعشى ذلك فى شعره فقال:

وإذا ذو الفضول ضنَّ على المو لى وعادتْ لخيمها الأخلاقُ

أى رجعت الأخلاق إلى طبائعها. قلت: ما ذكرته عن عائشة فى صحيح مسلم أصح الأقوال وسُئلت أيضًا عن خلقه ﷺ؛ فقرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات وقالت: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ولم يُذكر خلقٌ محمود إلا وكان للنبى ﷺ منه الحظ الأوفر. وقال الجنيد: سمى خلقه عظيمًا لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى. وقيل سمى خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليه قوله ﷺ: «إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق». وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

**الثانية:** روى الترمذى عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». قال حديث حسن صحيح. وعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «ما شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذىء». قال: حديث حسن صحيح. وعنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ما من شىء يوضع فى الميزان أثقل من

حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم». قال: حديث غريب من هذا الوجه. وعن أبى هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج» قال: هذا حديث صحيح غريب. وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا - قال - وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

ورسول الله ﷺ هو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين من أمته فلقد أعاره رب العزة تبارك وتعالى هاتين الصفتين (رؤوف رحيم) وهما من صفات الله عز وجل ومن أسمائه الحسنى ولم يصف بهما أحداً من خلقه غير النبى محمد ﷺ إعلاءً لقدره ورفعًا لشأنه وقد جاءت هاتين الصفتين بدون (أل) التعريف لأن الرؤوف والرحيم بـ (أل) التعريف هما من أسماء الله الحسنى وحده ومن صفاته تبارك وتعالى، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله: يقول تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث. وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية

وقال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى عن على قال: قال رسول الله ﷺ:«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يمسنى من سفاح الجاهلية شىء»، وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال: «بُعثت بالحنيفية السمحة» وفى الصحيح: «إن الدين يسر» وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم. وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الله ين يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبى الطفيل عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علمًا قال وقال رسول الله ﷺ: «ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُين لكم». وقال الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب». وقال البزار: عن أبى هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة: أراه قال فى دم فأعطاه رسول الله شيئًا ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال الأعرابى: لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال: «إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله شيئًا وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبى ﷺ: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم»، فقال: نعم. فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان

جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى كذلك يا أعرابى؟ فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبى ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار»، رواه البزار ثم قال:لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، قلت: " وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم. وقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧].

ورسول الله كان الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى كل هذه الأخلاق الكريمة يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١] فى تفسيره لهذه الآية الكريمة يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله: هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بوعود الله له وجعله العاقبة حاصلة لهم فى الدنيا والآخرة.

ومن صفاته النبيلة وفضل الله عليه ﷺ ما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] يقول ابن كثير يرحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة: وقوله : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ وقال الإمام ابن أبى حاتم: أنبأنا هاشم بن القاسم الحرانى فيما كتب إلىَّ حدثنا محمد بن سلمة عن قصة بنى أبيرق فأنزل الله ﴿ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ يعنى أسيد بن عروة وأصحابه يعنى بذلك لما أثنوا على بنى أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان فى كونه أتهمهم وهم صلحاء برآء ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتن عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال وعصمته له وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أى قبل نزول ذلك عليك كقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [الشورى : ٥٢]، إلى آخر السورة وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص : ٨٦] ولهذا قال وكان فضل الله عليك عظيما.

ورسول الله ﷺ هو الذى أرسله رب العزة جل وعلا شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً يهدى به القوم بعد ضلال ويضىء به الكون بعد ظلام دامس سحيق فهو المبعوث للناس كافة وليس لأمة بعينها أو جنس بعينه بل جاء لهداية البشر أجمعين، أرسله الله تعالى شاهداً على أمته ومبشراً بالجنة ونذيراً من النار وداعيًا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجًا منيراً بالقرآن، بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من ويل العقاب. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب : ٤٥، ٤٦]، وفى تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب يقول العلامة ابن كثير يرحمه الله: قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان حدثنا هلال بن على عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين فأنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا. عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقد كان أمر عليًا ومعاذاً رضى الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا إنه قد أنزل علىَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. ورواه الطبرانى عن محمد بن نصر بن حميد البزار البغدادى عن عبد الرحمن بن صالح الأزدى عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمى بإسناده مثله وقال فى آخره: «فإنه قد أنزل علىَّ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا على أمتك ومبشرًا بالجنة ونذيرًا من النار وداعيًا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجًا منيرًا بالقرآن» فقوله تعالى: ﴿شَاهِدًا﴾ أى لله بالوحدانية أنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيداً كقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. وقوله جلت عظمته ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أى داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك أى وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس فى إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند.

• • •

• • •

# الفصل الثانى

## قبس من أخلاق الرسول ﷺ كما جاء فى السنة المطهرة

فى ذكر مكارم أخلاق النبى ﷺ وتبيان صفاته النبيلة الكريمة جاء فى سنن أبى داود باب (فى الحلم وأخلاق النبى ﷺ): عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا فأرسلنى يومًا لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله ﷺ قال فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق فإذا رسول الله ﷺ قابض بقفاى من ورائى فنظرت إليه وهو يضحك فقال يا أنيس اذهب حيث أمرتك قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشىء صنعت لم فعلت كذا وكذا ولا لشىء تركت هلا فعلت كذا وكذا.

حدثنا عبد الله بن مسلمة حدثنا سليمان يعنى بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: خدمت النبى ﷺ عشر سنين بالمدينة وأنا غلام ليس كل أمرى كما يشتهى صاحبى أن أكون عليه ما قال لى فيها أف قط وما قال لى لم فعلت هذا أوألا فعلت هذا.

حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا أبو عامر حدثنا محمد بن هلال سمع أباه يحدث قال قال أبو هريرة وهو يحدثنا: كان النبى يجلس معنا فى المجلس يحدثنا فإذا قام قمنا قيامًا حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه فحدثنا يومًا فقمنا حين قام فنظرنا إلى أعرابى قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، قال أبو هريرة: وكان رداءً خشنًا فالتفت فقال له الأعرابى: احمل لى على بعيريَّ هذين فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك فقال النبى ﷺ: «لا وأستغفر الله لا وأستغفر الله لا وأستغفر الله لا أحمل لك حتى تقيدنى من جبذتك التى جبذتنى فكل ذلك يقول له الأعرابى:والله

لا أقيدكها فذكر الحديث، قال: ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرًا وعلى الآخر تمرًا ثم التفت إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله تعالى.

وجاء فى سنن البيهقى الكبرى باب (بيان مكارم الأخلاق ومعاليها) التى من كان متخلقًا بها: كان من أهل المروءة التى هى شرط فى قبول الشهادة على طريق الاختصار عن طلحة بن كريز الخزاعى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى كريم يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها» هذا مرسل وكذلك رواه الثورى عن أبى حازم.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالى الأخلاق ويبغض سفسافها» وكذلك روى عن أبى غسان عن أبى حازم.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» قال ابن عجلان وقال رسول الله ﷺ: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

عن شقيق عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا وإنه كان يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا». رواه مسلم فى الصحيح عن محمد بن عبد الله بن نمير عن أبيه وأخرجه البخارى ومسلم من أوجه أخر عن الأعمش وقال بعضهم فى الحديث: من خياركم.

عن النواس بن سمعان الأنصارى قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم فى الصحيح من حديث عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه. رواه البخارى فى الصحيح عن بندار عن ابن مهدى ورواه مسلم عن زهير بن حرب وغيره عن ابن مهدى.

عن أبى مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحى فاصنع ما شئت» رواه البخارى فى الصحيح عن آدم.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضرب خادمًا قط ولا ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه شىء قط فينتقمه من صاحبه إلا أن يكون لله فإذا كان لله انتقم منه. ولا عرض له أمران إلا أخذ الذى هو أيسر حتى يكون إثمًا فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس منه. رواه مسلم فى الصحيح عن أبى كريب عن أبى معاوية.

عن سليمان بن يسار عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم. رواه البخارى فى الصحيح عن يحيى بن سليمان ورواه مسلم عن هارون بن معروف وغيره عن ابن وهب.

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع، فإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف ولم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له.

عن أنس قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا لعانًا ولا سبابًا كان يقول لأحدنا عند المعتبة ما له تربت جبينه. رواه البخارى فى الصحيح عن محمد ابن سنان.

عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : «من يحرم الرفق يحرم الخير» رواه مسلم فى الصحيح عن أبى كريب عن أبى معاوية.

عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت على جمل فجعلت تضربه فقال النبى ﷺ: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لم يكن فى شىء إلا زانه ولم ينزع من شىء إلا شانه» أخرجه مسلم فى الصحيح من وجهين آخرين عن شعبة.

عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى

على العنف وما لا يعطى على ما سواه» رواه مسلم فى الصحيح عن حرملة عن ابن وهب.

عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير»، وقال: «أثقل شىء فى ميزان المؤمن خلق حسن إن الله يبغض الفاحش البذىء».

عن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى أحاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مساوئكم أخلاقًا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون».

عن أبى هريرة رضي الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ: ألا أخبركم بشرار هذه الأمة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون أولا أنبئكم بخيارهم أحاسنهم أخلاقًا.

عن إياس بن معاوية بن قرة المزنى قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز فذُكر عنده الحياء فقالوا: الحياء من الدين؟ فقال عمر: بل هو الدين كله. فقال إياس: حدثنى أبى عن جدى قرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذُكر عنده الحياء فقالوا: يا رسول الله الحياء من الدين؟ فقال رسول الله ﷺ: بل هو الدين كله ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الحياء والعفاف والعى عى اللسان لا عى القلب والعمل من الإيمان وإنهن يزدن فى الآخرة وينقصن من الدنيا وما يزدن فى الآخرة أكثر مما يزدن فى الدنيا». قال إياس بن معاوية: فأمرنى عمر بن عبد العزيز فأمليتها عليه ثم كتبها بخطه ثم صلى بنا الظهر والعصر وإنها لفى كمه ما وضعها إعجابًا بها.

عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كرم المؤمن دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه». هذا يعرف بمسلم بن خالد الزنجى وقد روى من وجهين آخرين ضعيفين عن أبى هريرة.

عن الأعمش عن شقيق قال: قال عبد الله يعنى ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول

الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

عن أبى سهيل نافع بن مالك بن أبى عامر عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان». رواه البخارى ومسلم فى الصحيح عن قتيبة.

• • •

• • •

# الباب الثالث

## دراسة تفصيلية
## لبعض الأخلاق الإسلامية
## في ضوء القرآن والسنة

# الاعتدال في الإنفاق

إن الإسلام دينُ الفطرة، وحينما ننظر فى الدين بجوانبه المختلفة ندرك هذه الحقيقة، كأساس للفطرة البشرية التى تقوم على الاعتدال فى مقاصد الحياة دون إفراط أو تفريط، وأخص ما وصف الله به هذه الأمة أنها الأمة الوسط، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط أدق معانيه: القصد والاعتدال فى مطالب الحياة كلها، الروحية والمادية، الفكرية والتجريبية، الدينية والدنيوية، الفردية والجماعية، وقد أباح الإسلام أن يستمتع الإنسان بطيبات الحياة، وبالاستمتاع المشروع من المطعم والمشرب، والزينة، والجمال، وسائر وجوه النفقة، فللروح حقها، وللبدن حقه، والمسلم يأخذ حقه من هذا وذاك، فى قصد وتناسق واعتدال ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

والاعتدال هو الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط وهما الخلقان الذميمان، فالاعتدال فى العبادات أن تخلو من الغلو والتنطع والإهمال والتفريط، وفى النفقات الحسنة بين السيئتين، فلا إسراف ولا تقتير. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، فهذه الآية تبين لنا أن عباد الرحمن لا يتصفون بالإسراف أو التقتير، وإنما يلزمون جانب الوسط وهو الاعتدال.

فالاعتدال فى الإنفاق سبب لتحقيق الآمال وقضاء المآرب والمطالب كما قال ﷺ: «لن ينجى أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشىء من الدلجة، والقصد والقصد تبلغوا» (رواه البخارى)، أى عليكم بالتوسط فى الأمور كلها، وسلوك سبل الاقتصاد، لتصلوا إلى غاياتكم ومرادكم، وكل ما ترغبونه وتحتاجونه، وأمرنا النبى ﷺ بالاقتصاد فى الإنفاق، لأن المال نعمة من عند الله، فهو قوام

للعباد، به تقوم أحوالهم الخاصة والعامة الدينية والدنيوية، فالمال خير عون لصاحبه، وأقوى عامل على رقى الأمم ونهوض الشعوب، وبه تكون الأمة عزيزة قوية، جليلة مهيبة محترمة فى نظر الشعوب، وبزواله تصبح الأمة ذليلة ضعيفة، ليس لها هيبة أو حرمة أو كرامة، بل فريسة للأقوياء، بهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم بأمر الاقتصاد وحمل الناس عليه ونهى عن الإسراف والتقتير وسفه أحلام المسرفين المبذرين.

وبهذا يتضح لنا أن للاقتصاد فوائد جليلة ومنافع عظيمة أهمها اتباع أمر الله ورسوله وقضاء حوائجنا ومطالبنا، والمحافظة على أموالنا التى هى عماد الحياة وقوامها، وبهذا نعيش فى أمن ورخاء فى الدنيا والآخرة، لأن الإنسان يحاسب على كل أعماله مرة واحدة ويحاسب على ماله مرتين: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

* * *

# القناعة

هى الرضا بما قُسم للمرء من متاع الحياة الدنيا، وعدمُ النظر إلى الغير وما معه من مال، فليس للحياة بدون قناعة لذة، ولا من غير رضا قيمة، وما ضاقت الدنيا إلا فى وجه من اتخذ الجشع طبعًا، والحرص دينًا، ولا عاش سعيداً إلا من كان الرضا حليفه والزهدُ قرينَه، قال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [ طه: ١٣١ ]، وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرض، ولكن الغنى غنى النفس» (رواه البخارى)، وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به» (رواه الترمذى).

وقال بعض الحكماء أيضًا: يا بن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائن الله ملآنة، وخزائنه لا تنفد أبداً، ولا تأنس بغير الله فإن أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله، وارض بما قسم الله لك، ترح قلبك وبدنك، ولا تطالبه برزق غدٍ كما لا يطالبك بعمل غدٍ، فإنه لا ينسى من عصاه، فكيف ينسى من أطاعه، وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

وقال الشاعر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائلُه ... واحذر ولا تتعرض للإراداتِ

فما صفا البحرُ إلا وهو منتقصٌ ... ولا تعكر إلا فى الزيـاداتِ

وروى أنه وفد على رسول الله ﷺ وفدٌ بصحبتهم غلام، فعندما انصرفوا من عنده أجاز كلاً منهم بجائزة، كعادته مع الوفود، وأراد الرسول أن يستوثق من مكافأتهم جميعًا فقال: هل بقى معكم أحد..؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سنًا، فاستدعاه رسول الله ﷺ ليأخذ جائزته فقال: يا رسول الله: إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى وإن كانوا راغبين فى الإسلام، والله ما أخرجنى إليك إلا أن

تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى، وأن يجعل غنائى فى قلبى: فدعا له النبى بذلك ثم أجازه وقفل الجميع راجعين إلى اليمن، ثم وافاه جماعة منهم بمنى سنة عشر، فسألهم الرسول ﷺ عن الغلام فقالوا: والله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا من حوله ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

وصدق الإمام على كرم الله وجهه حينما عرف التقوى فقال: هى الخوف من الجليل، والقناعة بالقليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال أيضًا عن القناعة:

أفادتنى القناعة كل عز ... وأىُّ غنى أعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة

ندعو المولى تبارك وتعالى أن يرزقنا القناعة ويبارك لنا فيما رزقنا وأن يباعد بيننا وبين الحرام كما باعد بين المشرق والمغرب.

* * *

# قمع النفس عن الهوى

إن للنفس نزعات شيطانية، ولذات شهوانية، فإذا هى تركت وشأنها فإنها تلهث وراء لذاتها، وتسيرُ فى سبيل شهواتها، فنزعتْ إلى الشر كل منزع، فلا شك أنها تؤدى بصاحبها إلى الهلاك، أما من تغلب على نفسه وقادها بعقل راجح، وفكر ثابت، ومنعها من أطماعها الدنيئة، وكفها عن شهواتها، فإنه يكون بعيداً عن مواطن الشقاء والهلاك، غير مرتكب إثمًا ولا متحمل وزراً، وسيجزيه الله الجزاء الأوفر مع المتقين.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» (رواه الترمذى).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مرى، وإن الباطل خفيف وبى، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً.

وقال أبو الفتح البُستى:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفى عهد عمر بن الخطاب توالت الفتوح والانتصارات واتسعت الدولة، وتدفقت الموارد، وكان عمر رضي الله عنه يأبى إلا الشدة، فلما جاد الله بالسعة، دخل المسلمون على أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضى الله عنها، فقالوا: يأبى عمر إلا شدة على نفسه

وحصراً وقد بسط الله فى الرزق، فليبسط من هذا الغنى فيما شاء منه، وهو فى حل من جماعة المسلمين.

فكأن حفصة قاربتهم فى هواهم، فلما انصرفوا من عندها دخل عليها والدها سيدنا عمر فأخبرته بالذى قال القوم.

فقال لها عمر: يا حفصة بنت عمر، نصحت قومك وغششت أباك، إنما حق أهلى فى نفسى ومالى، فأما فى دينى وأمانتى فلا، سأخاصمك، أما تذكرين ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلقى من شدة العيش؟ وما زال يذكرها حتى أبكاها. قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال ابن السماك: كن لهواك مسوِّفًا، ولعقلك مسعفًا، وانظر ما تسوء عاقبته، فوطِّن نفسك على مجانبته، فإنَّ ترك النفس وما تهوى داؤها، ونهى النفس عما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء.

* * *

## الإخـــلاص

إن البواعث التى تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إجادته وتغريه بتحمل التعب فيه، أو بذل الكثير من أجله كثيرةٌ متباينة، منها القريب الذى يكادُ يُرى مع العمل، ومنها الغامضُ الذى يختفى فى أعماق النفس لذلك فإن أى عمل يقوم به المسلم يجب أن يكون مراده فيه هو الله رب العالمين لذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٨ - ٢١].

وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبُها أو امرأة ينكحُها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (البخارى) وقد جعل الإسلام اللذاذات التى تتشهاها النفس إذا صاحبتها النية الصالحة والهدف النبيل تحولت إلى قربات، فما يطعمه الإنسان فى بدنه، أو يطعمه أولاده وزوجته له مثوبة بنية الخير التى تقاربه، عن سعد ابن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله، إلا أجرت عليها حتى ما تجعله فى فم امرأتك» (البخارى).

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته فإن حركاته وسكناته ونوماته ويقظاته، تحتسب خطوات إلى مرضاة الله، وقد يعجز عن عمل الخير الذى يصبو إليه لقلة ماله أو ضعف صحته، أما العبادات التى تصدر عن رياء وسمعة فالله تعالى لا يقبلها من عباده.

قال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ

﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويقول رسول الله ﷺ:

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض» (ابن ماجة).

وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وقد أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء فى الأعمال الصالحة واعتبره شركًا بالله رب العالمين والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

# العــــدل

العدل هو التزام طريق الحق فى كل أمر من أمور الدنيا، وعدم الحيدة عنه قيد شعرةٍ، والبعدُ عن الظلم أو الميل عن جادة الإنصاف بقصد قضاء بغيةٍ أو منفعةٍ تعود إليه.

والحقيقة التى لا مراء فيها أنه لا منفعة وراء الظلم، ولا فائدة ترجى منه، بل هو طريقٌ وعرُ المسلك، قلما ينجو منه صاحبه، وإن ما يلقاه من مقاطعة الناس له، وغضب المولى عليه، لأكبرُ دليل على كبر ذنب الظالمين وسوء عاقبة الباغين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال بعض الحكماء: يوم العدل على الظالم، أشد من يوم الجور على المظلوم. وقال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلمُ آخرُه يفضى إلى الندمِ

تنامُ عيناك والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ اللهِ لم تنمِ

وكان من خلق المهدى الحياء والعفو والجود والحلم وكان يتأثر بالقرآن كما اتصف بالعدل، وجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة، وقد بلغ من حبه للعدل وميله إلى رد المظالم لأصحابها، أنه كان يقول إذا جلس: أدخلوا على القضاة فلو لم يكن رد المظالم إلا للحياء منهم لكفى.

ومما يدل على عدل المهدى ما قاله مسعود بن مساور، وقد ظلمه وكيل المهدى وغصبه ضيعته، فأتى صاحب المظالم وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدى وعنده القاضى، فأمر المهدى بإدخاله وسأله عن مظلمته، فأخبره فقال للقاضى: إن هذا ظلمنى فى ضيعتى، مشيراً إلى المهدى، فقال القاضى: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتى فى يدى، فقال ابن مساور: أصلح الله القاضى، سله: صارت إليه

الضيعة قبل الخلافة أم بعدها؟ فقال المهدى بعد الخلافة، فقضى القاضى للمدعى، فخضع المهدى لحكم القضاء.

وصدق من قال:

| | |
|---|---|
| العدل روح به تحيا البلاد كما | دمارها أبدًا بالجور ينحتم |
| الجور شين به التعمير ممتنع | والعدل زين به التمهيد ينتظم |

وقال أحد الحكماء: الظالم مهلك ثم هالك، كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر، لا تبقى معها مع تمكنها شيئًا، حتى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت.

إن العدل أمانة وعهد، ولا بد أن يكون المسلم من خلال مسئوليته عن نفسه وأهله ملتزمًا بالعهد والعدل، ومراعيا لهدى الله، أما إذا ظلم الإنسان وبغى فى الأرض ونسى عهد الله فهذا لا يستحق العهد إطلاقًا ولذلك قال تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولو نظرنا إلى عهد النبى ﷺ وصحابته الكرام لوجدناهم هم أفضل مثال للعدل فى الأرض ولذلك قال عمر: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فىَّ إن لم أسمعها»، أى كلمة العدل، ولذلك وصفه الرسول بالفاروق أى العادل الذى فرق بين الحق والباطل وبين العدل والجور.

* * *

# الجود والكرم

إن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق وينهى عن الشح والإمساك، ولذلك حبَّب إلى بنيه أن تكون نفوسُهم سخية، وأكفُّهم نديَّة، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعى الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم لا ينفكون عنه فى صباح أو مساء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

من الواجب على المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله فإن عليه أن يُشرك غيره فيما آتاه الله من فضله، وأن يجعل فى ثروته متسعًا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين. قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: [يا بن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى] (رواه مسلم).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة والمساكين، فإن المبذر متلافٌ سفيه يُضيِّع فى شهواته الخاصة ماله، فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض؟

قال الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧].

وقصر السياق فى الإيصاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم، فأمر المسلم أن يقول لهم الخير وأن يرد بميسور من القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضةٌ مستمرَة وحربه على الشح والبخل موصولة مستمرة وفى الحديث: «السخى قريب من الله قريب من الناس، قريب من

الجنة، بعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهل سخيٌّ أحب إلى الله من عابد بخيل» (رواه الترمذى) إنه لم يوجد فى الدنيا - ولن يوجد - نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة، بل لا بد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف، وأن يرفق المكثر بالمقل، وفى الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير، وإسداء العون وصنائع المعروف، ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم، بل يرتد أمانُها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم فيقيهم زلازلَ الأحقاد، وعواقبَ الأثرة العمياء، قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ولقد حث الرسول ﷺ الناس على البذل والعطاء للبائسين المحرومين، فعن جرير قال: كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاء قوم عراة مجتابو النمار (مشقوقو الملابس) عامتهم من مضر فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من فاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثم قال: ليتصدَّقَ الرجل من ديناره، من درْهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمْره حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة فكادت كفه أن تعجز عنها بل لقد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبه، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء» (رواه مسلم).

* * *

# الحفاظ على البيئة من التلوث

إن الدين الإسلامى دين متكامل يحرص على سلامة المسلم ويحفظ له صحته وماله وعرْضَه، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف قال تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧، والبيئة هى الوعاء الذى يعيش فيه الإنسان ليؤدى الأمانة التى حملها فى هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وحرص الإسلام على البيئة هو حرص على الإنسان جسداً وروحًا ووقاية وعلاجًا. فلقد حث الإسلام على الحفاظ على البيئة من التلوث حتى لا تنتشر الأمراض وتتفشى الأوبئة فى المجتمع قال ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل» (رواه أبو داود وابن ماجة).

وأمر الإسلام بطهارة الثوب قال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]، وكان هذا من أول ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ فالثوب الطيب دليل طيب لابسه. وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ رأى رجلاً رأسه شعث فقال: «أما وجد هذا ما يسكن به شعره؟»، ورأى آخر عليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسلُ به ثوبه؟» (رواه أبو داود ).

وأمر الإسلام بطهارة البدن فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة: ٦].

وأمر الإسلام بطهارة المكان قال تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

والحفاظ على البيئة من التلوث يحمى المجتمع من الأمراض التى تسببها البكتريا والطفيليات المتعددة كالبلهارسيا وأمراض الكوليرا والتيفود وغير ذلك من هذه الأمراض، وللتلوث مظاهر عديدة كالصرف غير الصحى والإساءة إلى نهر النيل العظيم وإلقاء القمامة فيه، وإلقاء الفضلات فى الطريق العام، وحرق القمامة فى غير الأماكن المخصصة لها، وعوادم السيارات وسمومها والتلوث الضوضائى الذى يؤدى إلى الصمم الضوضائى لأنه يحطم أجهزة السمع، والغبار الذى يثار من المصانع الأسمنتية وغيرها. كل هذا ينبغى أن نتلاشاه من حياتنا وأن نعمل على توعية الناس بالأضرار التى تلحقهم نتيجة هذه الأفعال. فكلما كانت البيئة نظيفة كانت حياة الناس مستقرة خالية من الأمراض الصحية التى تفتك بهم.

ولقد اتخذ الإسلام أساليب وقائية للحفاظ على البيئة من التلوث، من ذلك الابتعاد عما فيه هلاك للإنسان كشرب الخمر والمسكرات والتدخين قال تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وكذلك حرم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير حفاظًا على صحة الإنسان، قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٢].

إن المحافظة على البيئة تكون بالنظافة وتخلية البيوت والشوارع من القمامات التى تنبعث منها رائحة غير طيبة، وتكون بيئة للحشرات ومصدراً للعلل وانتشار العدوى وخصوصًا الذباب الذى يكثر انتشاره فى فصل الصيف وخطره معلوم فى نشر عدوى الحميات وأمراض العيون،وكم من عين سليمة نقلت إليها ذبابة صغيرة مرضًا من الأمراض فأتلفتها ولم يستطع صاحبها أن يسترجع بصـــره الذى كان يتمتع به.

* * *

# الدعوة إلى السلام

إن الإسلام هو دين السلام، من أجل ذلك تكررت الدعوة إليه والأمر به فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة وذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وهى دعوة عامة شاملة تُقرر أن من صفات المؤمنين دخولَهم فى السلم، وطالب القرآن الكريم بإفشاء السلام إلى أقصى مدى وأوسع نطاق إذ جعله التحية بين المؤمنين،تقول الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

بل إن السلام هو تحية المؤمنين يوم يلقون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بنص الآية الكريمة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وهكذا تتكرر الآيات التى تدعو إلى السلام، وليس هناك من دليل على اهتمام القرآن الكريم بالسلام يعدل تقريره أن الله سبحانه قد اختار بنفسه لنفسه السلام ليكون من أسمائه الحسنى وصفاته العليا وذلك بالنص الشريف قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وأنه جل شأنه قد اختار هذا الاسم وهذه الصفة ليطلقها على الجنة إذ إنه سبحانه، وتعالى يدعو إلى دار السلام وذلك بالنص الكريم: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ولهذا فقد استجاب سيدنا رسول الله ﷺ لداعى الله والقرآن فكان جداله لخصومه بالتى هى أحسن تنفيذاً لأمر الله بالنص الشريف قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وكان دفعه ﷺ السيئة بالحسنة وذلك امتثالا لأمر الله سبحانه قال تعالى: ﴿لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولما اشتد إيذاء الخصوم له وللمسلمين وتحملوا فوق طاقتهم وأكثر من قدرتهم وظلموا، كان لا بد لهم من امتشاق السلاح ودفع الأذى بالقوة فكان الأمر بالقتال والإيذان به دفعًا للظلم وذلك بالنص الشريف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ولكن إذا اعتزل الأعداء وتوقفوا عن القتال فلا مندوحة من قبول السلام الذى يعرضونه بإيقافهم العدوان وذلك تنفيذاً لأمر الله سبحانه قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠].

بل إن الله سبحانه قد أمر أمراً واجب الأداء مفروض التنفيذ: أنه إذا رغب الأعداء فى السلام اتجه المسلمون إليه وذلك بالنص الكريم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

ومما يجب علينا أن نتأمله ونتدبره ذلك النص الكريم، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، هذه الآية تدعونا لإعداد القوة لإرهاب العدو حتى لا يفكر فى الاعتداء علينا وبذلك نكون قد فرضنا عليهم السلام بقوة السلاح هكذا يطالبنا الإسلام بالسلام... نبحث عنه وندعو له ونحرص عليه، ولو أدى الأمر إلى فرضه بالقوة.

فإن السلام إنما هو السبيل إلى إصلاح الأرض، والحرب هو طريق إفسادها وقد أصلح الله الأرض ودعانا لمباشرة إصلاحها وأمرنا بألا نفسد فيها ولكن إذا ما اعتدى على الوطن أو على الأهل أو على العرض وكان لا بد من القتال يدعونا الإسلام إلى الدفاع إلى أبعد مدى وأقصى طاقة، والله من وراء القصد يحقق لنا السلام ويجعلنا من الداعين له العاملين عليه المتمسكين به.

* * *

# حسن الجوار في الإسلام

لقد أكد الإسلام حق الجوار سواء كان جاراً قريبًا أو بعيداً أو أجنبيًا أو مرافقًا في السفر أو زميلاً في تعلم العلم أو كان جالسًا إلى جوارك في مجلس فقد قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦].

وجعل الإسلام إكرام الجار لجاره دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر فقال صلوات الله وسلامه عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (رواه البخاري).

كما جعل الإسلام من دلائل الإيمان وكماله أن يأمن الجار بوائق جاره أي غوائله وسروره.

فقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه» (رواه البخاري).

ومن حقوق الجار أن يبدأ المسلم جاره بالسلام ولا يكثر من السؤال عن حاله والتتبع لأخباره، وعليه أن يعود جاره إذا مرض وأن يعزيه إذا كان مصابًا ويهنئه إذا فرح ويصفح عن زلاته ولا يتطلع إلى عوراته ولا يضيق طريقه إلى الدار ولا يتطلع إلى ما يحمله إلى داره ويرشده إلى ما يجهله من أمور دينه ودنياه.

وللجار حق وإن لم يكن مسلمًا.

وعلى المسلم أن يطيع الله في جاره.

وأما إذا زاد الجار في شره وإيذائه لجاره ولم يُجدِ معه الصبر ولا الملاينة فعليه

بتحريك الرأى العام معه، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له النبى: ﷺ اصبر ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة:

اطرح متاعك فى الطريق.

قال: فجعل الناس يمرون به ويقولون: مالك؟ فيقول: آذاه جاره فجعلوا يقولون: لعنه الله فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فوالله لا أعود (رواه أبو داود والحاكم).

وإيذاء الجار وعدم القيام بحقه يحبط عمل صاحبه لأن الإسلام دين عبادة ومعاملة.

* * *

# الرفــق

من الصفات الكريمة التى ينبغى أن يتحلى بها المسلم وخاصة من تصدى لدعوة الناس إلى الخير ونهيهم عن الشر لينُ الجانب وحسنُ الخلق ليكون التأثير أبلغ والاستجابة أقوى، وهذه الصفة من أهم ما يجب أن يتحلى به الداعية فى طريق الإصلاح والتبليغ والدعوة إلى الله.

إن الله سبحانه حينما أمر موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ليذكراه بربه أمرهما أن يخاطباه بالقول اللين وبالكلام الرقيق، فإن الكلام السَّهْلَ اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب وأن يوقظ القلب للتذكر كأن يْحملَه على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان.

قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ – ٤٤].

وهذا القول اللين الذى أمرهما الله به فى هذه الآية قد جاء ما يفسره فى آيات أخرى وهى قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧ – ١٩].

قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمرَ ألا يخاطب فرعونَ إلا بالملاطفة واللين.

ولقد كان رسول الله ﷺ لينًا رفيقًا بأتباعه فى كل أحواله بدون إفراط أو تفريط بسبب الرحمة العظيمة التى منحه الله إياها. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرسول ﷺ لم يكن فظًا غليظ القلب لذلك التف أصحابُه مِنْ حوله يفتدونه بأرواحهم ويحبونه حُبًا يفوق حبَّهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحبِّ الأشياء لديهم،

لقد كان رحيما بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدِّمة إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَابٍ فى الأسواق ولا يَجْزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح (ابن كثير جـ١ ص٤٢٠).

إن الرسول ﷺ كان يأمر بالرفق، روى البيهقى عن عمرو بن شعيب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أمر بمعروف فليكن بمعروف». وروى مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا يُنْزَعُ من شىء إلا شانه». وفى رواية لمسلم «إن الله رفيق يحب الرفق ويُعْطِى على الرفق ما لا يُعْطى على العنف، وما لا يُعْطِى على سواه».

**قدوته ﷺ العملية فى الرفق:**

روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابى فى المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه فقال النبى ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سَجْلا (دَلْوًا) من ماء فإنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين».

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى أمامة رضي الله عنه أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال: (يا نبى الله أتأذن لى فى الزنى) فصاح الناس به فقال النبى: «قربوه .. ادْنُ» فدنا حتى جلس بين يديه فقال عليه الصلاة والسلام: «أتحبُه لأمك»؟ قال: لا، جعلنى الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم» وزاد الراوى ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول فى كل واحدة: لا، جعلنى الله فداك والنبى ﷺ يقول: «كذلك الناس لا يحبونه» ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره، وقال: «اللهم طهِّرْ قلبه واغفر ذنبه وحَصِّن فرجه» فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنى.

* * *

# الاستغفار

الاستغفار معناه: طلب الغفران من الله - عز وجل - عن الذنوب التى يقْترفها المستغفر، والتماسُه سعة حلم الله به، وهو - أى المستغفر - إنما يطلب المغفرة عن ذنوب صدرت منه وندم عليها، وخشى الله من أجلها... وبين هذا ومعنى التوبة شىء من الاتساق كما هو المتبادَر وإن كان من فَرْق فهو أن الاستغفار على الأغلب يكون من المؤمنين فى حين أن التوبة تكون من المؤمنين وغير المؤمنين.

لقد أخبر الله عن نفسه بأنه كثيرُ المغفرة واسع الرحمة لعباده المؤمنين وأن عذابه هو العذاب الشديد للمشركين والعاصين، قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر: ١-٣]، والله سبحانه كثير المغفرة لمن تاب من الشرك وآمن بما يجب أن يؤمن به، وعمل عملاً صالحًا ثم واظب على ذلك حتى يَلْقَى ربَه. قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]. ولقد بين الله سبحانه فى محكم كتابه بأنه يغفر الذنوب جميعًا إلا الشرك بالله. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦]. ولقد أمر الله المؤمنين بالاستغفار، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦].

وفى القرآن آيات كثيرة تحكى استغفار الأنبياء منها استغفار نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٨]، ويحكى القرآن استغفار الملائكة للمؤمنين الذين تابوا إلى الله واتبعوا الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ

رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [ غافر : ٧ ]. وفى القرآن آيات كثيرة تحكى استغفار المؤمنين وطلبهم الغفران من الله، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣ ].

ولقد وردت أحاديث نبوية عديدة فى حَضِّ المؤمنين على الاستغفار وتعليم بعض صيغه وبيان فوائده منها حديث رواه البخارى والترمذى وأبو داود عن شداد بن أوس، قال النبى ﷺ سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يُمْسِى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

**أثر الاستغفار:**

إن المؤمن إذا استغفر ربه أعطاه الله نعما ليست مشوبة بالمكدِّرات والمنغصات التى تُقْلِقُ الإنسان فى دنياه وإنما هو عطاءٌ يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [ هود : ٣ ]. إن قوم نوح عليه السلام لما كَذَّبُوه زمنا طويلا حبَس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم فرجعوا إلى نوح عليه السلام، فقال: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه. قال نوح لقومه كما يحكى القرآن: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ ﴾ [ نوح : ١٠ - ١٢ ].

روى أبو داود والنسائى بسند صحيح عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب». هذا والفائدة من الاستغفار تتحقق بالندم على الذنب والعزم على الإصلاح وعدم الرجوع إلى الذنب ولا تكون بحركة اللسان والشفتين وحسب.

* * *

# الجـدل بالحسنى

الجدل: اللددُ فى الخصومة والقدرةُ عليها. يقال: جَادَلْتُ الرجل فجدلْتُه جدلاً أى غلبتُه (لسان العرب - جدل).

والجدل نوعان: ممدوح ومذموم - فالممدوح ما كان الغرض منه إظهار الحق، والمذموم ما كان الغرض منه دفع الحق وإظهار الباطل. وفى الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (رواه أحمد والترمذى)، فالمراد بالجدل فى الحديث: الجدل على الباطل وطلبُ المغالبة به لا إظهار الحق. ومن هنا نفهم السر فى ورود آيات فى القرآن تأمر بالجدل، وورود آيات أخرى تذم الجدل.

فمن الآيات التى وردت فى الأمر بالجدل قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومن الآيات التى وردت فى ذم الجدل المقصود منه دفع الحق وإظهار الباطل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤].

ولقد جادل أنبياء الله الكفارُ لدفع الحق وإظهار الباطل فهذا نوح يقص القرآن جدل الكفار معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي

أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ نوح : ٢٥ – ٣٥ ] .

وهذا ابراهيم عليه السلام يجادله النمرود لدفع الحق وإظهار الباطل، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [ البقرة : ٢٥٨ ] .

ولقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادل بالتى هى أحسن قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [ النحل : ١٢٥ ] .

**أهمية الجدل بالحسنى:**

إن النفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعُر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتُها هى عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها ، والجدل بالحسنى هو الذى يطمئن هذه الكبرياء الحساسة، ويُشْعرُ المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها والاهتداء إليها فى سبيل الله، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر، ويشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، فلا ضرورة للمحاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [ النحل : ١٢٥ ] .

* * *

# الدعــــاء

**معنى الدعاء:**

الدعاء هو الابتهال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه فى كشف السوء عنه.

**أهمية الدعاء:**

إن المرء ضعيف أمام الأحداث فى هذه الحياة، فلا يجد سنداً لضعفه غير الدعاء. ولقد شعر الإنسان بهذا الضعف منذ نشأ لا سيما فى وقت الشدة إذا نزلت به نازلة أو ألمت به مُلمة فهو فى حاجة إلى من يعينه على جلب الخير له ودفع المكروه عنه. والعصر الذى نعيشه شاعت فيه المغريات وتنوعت وفشت الأنانية وانحطت المدارك وكثر البلاء والابتلاء ولا شىء يمسَحُ عن هذه النفوس صداها، ويزيل عنها بلاءها ويمحو بؤسها وشقاءها إلا الدعاء والالتجاء إلى الله فهو ملجأ كل لائذ، ورجاءُ كل خائف عندما تشتد الكروب وتنقطع الأسباب، وحينئذ يجد المسلم فى نفسه الراحة والطمأنينة، ويجد فى دعائه التعزية والسلوى، والدعاء من مستلزمات العبادة، إذ هو الصلة التى تربط بين الإنسان وخالقه، والدعاء هو العبادة؛ عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. (أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح الإسناد)، وإنما كان الدعاء هو العبادة لأن منزلته فيها كمنزلة الرأس من الجسد فهو عمادُها ودعامتها، فالدعاء ما هو إلا اتجاه إلى الله بقلب سليم، واستعانة به بإخلاص ويقين لكى يُدفع المكروه ويمنح الخير، والإنسان فى حالة الدعاء بإخلاص يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى مؤديًا لأشرف ألوان العبادة، والدعاء علاج نفسى لكثير من أمراض النفس، فإذا أفضى الإنسان المحزون إلى ربه ما يعانيه، وطلب منه ما يبتغيه فإنه يشعر بطمأنينة وبنفحة روحية تنتشله مما هو فيه من الهم والضيق، وذلك لأن الإيمان يقتضى الاعتقاد التام بأن الله قريب منه مجيبُ دعوته. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولقد عُنى القرآن بالدعاء وحث عليه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، والدعاء له شأنٌ عظيم عند الله فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» (رواه أصحاب السنن والحاكم). إن الإكثار من الدعاء طريقٌ إلى رحمة الله، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من فتح له باب الدعاء فُتِّحت له أبوابُ الرحمة» (رواه الترمذى). إن الدعاء فرج للنفوس التى تكاد تُشرف على الهلاك وهو يمحو الخوف ويهبُ الطمأنينة للقلوب المضطربة.

**من آداب الدعاء:**

**أولاً:** التضرع والخشوع حال الدعاء، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ومعنى خفية أى سراً فى النفس ليبعد عن الرياء.

**ثانيًا:** الإلحاح فى الدعاء، والإلحاح فى الدعاء ممدوح؛ لأنه تذللُ وخضوع، قال ﷺ لرجل ألح فى المسألة وهو يسمع منه: «أوجب إن ختم» يعنى إن ختم دعاءه بآمين وجبت له الجنة (رواه أبو داود).

**ثالثًا:** أن يبدأ بنفسه فعن أبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه» (رواه الترمذى).

**رابعًا:** صدْقُ الرجاء فى الإجابة بدون تعجل، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» (رواه الترمذى)، وقال ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: قد دعوت فلم يُسْتَجَبْ لى» (أخرجه البخارى ومسلم).

**خامسًا:** أن يدعو بما يتفق مع تعاليم شريعة الإسلام.

**سادسًا:** أن يكون مطعمه حلال، قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص «يا سعد أطب مطعمك تستجبْ دعوتك» (أخرجه الحافظ).

* * *

# القول الحسن

إن المؤمن التقى القوى الأمين لا ينطق إلا بما يُرضى الله، فيزن كلامه بالقسطاس المستقيم؛ لأن الإسلام يلاحظ مشاعر الناس وأحاسيس الآخرين فمن أراد أن يتكلم فليقل خيراً أو ليصمت، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (البخارى). وأفضل الناس قولاً من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم؛ لأن الصمت فى مواضعه من شيم الرجال، والنطق فى مواضعه من كريم الخصال، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

إن الكلمة الطيبة - كلمة الحق - مثلُ الشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان لأنها سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل، وإن خيل إلى البعض أحيانًا أن الشر يزحَمُها فى الفضاء، فهى مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن .. وإن الكلمة الخبيثة - كلمة الباطل - مثل الشجرة الخبيثة، قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشة وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هى إلا فترةٌ ثم تجتث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]. لقد أمر الله بالقول الحسن، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

**ما المراد بالقول الحسن؟**

والقول الحسن المراد به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

إن كلمة الدعوة أحسن كلمة تقال فى الأرض وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء ولكن مع العمل الصالح الذى يصدُق الكلمة، ومع الاستسلام مع الله الذى تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

ولقد أمر الله نبيه أن يدعو إلى سبيله بالحكمة والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم بالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية فإن الرفق فى الموعظة كثيرا ما يهدى القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وكذلك على الداعية أن يجادل بالتى هى أحسن بلا تحامل على المخالف، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن النفس الطاهرة البريئة من أدران الرذائل والوساوس والهواجس لا تضغن ولا تحقد ولا تهتف بما لا تعرف تمقت الثرثرة وتأبى الإسفاف ولغو القول ولكنها تسمو وترتفع ولا تقابل السيئة بالسيئة والله يقول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]. لقد أمر الله عباده أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن على وجه الإطلاق وفى كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه، بذلك يتقون أن يُفسد الشيطان ما بينهم من مودة.. فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخبيثة تفلت وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو المودة والمحبة والوفاق مشوبٌ بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء... والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب تُندى جَفافها وتجمعُها على الود الكريم، والشيطان يتلمس سقطات الفم وعثرات اللسان فيُغرى بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق وتحفظ حرمَ الأخوة أمنا من نزغاته ونفثاته.

* * *

# العفـــة

إن الشـاب المسلم يرغب فى الزواج لكن فى بعض الأحوال يكون المال غير متيسر لديه.. إنه يريد أن يستجيب لدواعى الغريزة بالرباط المقدس، ولكن قد تحول دونه بعض العقوبات، إنه يريد أن يُلَبِّيَ نداء الرسول فى دعوة الشباب إلى الزواج لكنه أحيانًا لا يجدُ المال ولا يجد من البيئة التى يعايشها عطف الإنسان على أخيه الإنسان!! إذن ما السبيل إلى إحصان نفوس الشباب والحد من ثورة غرائزهم الجامحة؟ السبيل إلى ذلك هو أن يستجيب الشباب لدعوة القرآن الكريم فى التمسك بحبل الإعفاف والتسامى، وهذا هو الطريق الوحيد فى إصلاح نفوس الشباب وإحصان فروجهم والترفع عن هواجس نفوسهم الأمارة بالسوء قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٣].

**والاستعـفاف:** طلب العفَّة واختيار طريق الفضيلة التى من وسائلها غض البصر عن المؤمنين والمؤمنات الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التى توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد أو ما يشبه ذلك، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف، وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله من فضله رزقًا يستعينون به على إتمام الزواج فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ وعد كريم من الله تعالى للتائقين إلى الزواج العاجزين عن تكاليفه بأن الله سبحانه سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه متى اعتصموا بطاعته، وحافظوا على أداء ما أمرهم به.

لقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بحفظ فروجهم عما لا يحل لهم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١] لقد بيَّن الله أن من صفات المؤمنين المفلحين أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله لهم وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة

إيمانًا حقًا أن تصان فيها الأعراض، وأن يحافظ فيها على الأنساب، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله تعالى.

**ما ثمار حفظ الفرج كما وضحها القرآن؟**

بين الله أن حفظ الفرج هو أحد الصفات التى يرث المؤمن بسببها (الفردوس) والفردوس أعلى الجنات وأفضلها، ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»، فحفظ الفرج أحد الصفات التى يرث المؤمن بسببها «الفردوس»، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١]، إن الله بين فى كتابه أن حفظ الفرج هو أحد الصفات التى أعد الله لأصحابها بسببها مغفرة وأجراً عظيمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، كل هذا لأن حفظ الفرج يتم به صيانة الأبضاع وحفظ الأنساب، وحماية أواصر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء، وإحكام الروابط حتى لا تعبث بها يد الفساد، وبذلك يشيع فى المجتمع الراحة والسكينة، ويدفع بأبنائه إلى إجادة أعمالهم وحسن عبادتهم لله خالقهم.

* * *

# الخشــوع

**الخشوع فى اللغة:** السكون والطمأنينة ومعناه شرعًا خَشْيـة القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح فيجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدى الله سبحانه، إن الله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير ويصلها بنوره فتشرق به وتستضىء. قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢١]، هذه الآية تصور حقيقة القلوب التى تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به وتصور حالها مع الله حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة.

**مجالات الخشوع:**

**أولاً: الخشـوع فى الصـلاة.**

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. والمعنى لقد فاز وظفر بالمطلوب أولئك المؤمنون الصادقون الذين من صفاتهم أنهم فى صلاتهم خاشعون بحيث لا يشغلهم شيء وهم فى الصلاة عن مناجاة ربهم وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعه كالعبث بالثياب أو بشىء من جسده، فقد أبصر النبى ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه» (السنن الكبرى للبيهقى). قال القرطبى: اختلف الناس فى الخشوع هل من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين والصحيح الأول ومحله القلب وهو أول عمل يُرْفع من الناس (تفسير القرطبى جـ١٢، ص٢٠٣). إن الذين هم فى صلاتهم خاشعون تستشعر قلوبهم رهْبة الموقف فى الصلاة بين يدى الله فتسكن وتخضع فيَسْرى الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ويَغْشَى أرواحهم جَلال الله فى حضرته فتختفى من أذهانهم جميع الشواغل ولا تشتغل بسواه وهم مُسْتغرِقون فى الشعور به مشغولون بنجواه،

ويتوارى عن حسهم كل ما حولهم وكل ما بهم فلا يشهدون إلا الله ولا يحسون إلا إياه ولا يتذوقون إلا معناه.

**ثانيًا: الخشوع عند قراءة كتاب الله.**

قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، قال ابن كثير - رحمه الله - في معنى هذه الآية: أي إذا سمع أولئك الذين أنعم الله عليهم كلامه المتضمن حجته ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعًا، واستكانة وشكرًا على ما هم فيه من نعم. فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا في هذه الآية اقتداء بهم واتباعًا لمنوالهم وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فسجد وقال: هذا السجود فأين البكاء؟ (تفسير ابن كثير جـ٣، ص١٢٧)، وهذه الظاهرة من الخشوع والإخبات والتحزن هو ما كان عليه الرسول ﷺ وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: حسبُك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان».

**ثالثًا: الخشوع عند ذكر الله.**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، يعني إذا ذكرت صفاته الجليلة وقدرته النافذة ورحمته الواسعة وعقابه الشديد وعلمه المحيط بكل شيء وما يستتبع ذلك من حساب وثواب خافت قلوبهم وفزعت وخشعت استعظامًا لجلاله وتهيبًا من سلطانه.

* * *

# غض البصر

إن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس... مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة، ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

لقد أمر الله المؤمنين بغض الأبصار، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠].

فالمراد بغض البصر: كف النظر عما لا يحل إليه بخفضه إلى الأرض أو بصرفه إلى جهة أخرى وعدم النظر بملء العين وجاء التعبير بقوله سبحانه: «قل للمؤمنين» للإشعار بأن المؤمنين الصادقين من شأنهم إذا أمرهم الرسول ﷺ بأمْر فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون؛ لأنه ﷺ مبلغ عن الله تعالى الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه، وخص سبحانه المؤمنين بهذا الأمر؛ لأنهم أولى الناس بالمخاطبة وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم ويعلى أقدارهم. وكما أمر الله المؤمنين بغض الأبصار أمر المؤمنات بمثل ما أمر به المؤمنين تزكية للنفوس وتطهيرا للمجتمع من أدران الفاحشة والتردى فى بؤرة الفساد والتحلل الخلقى وتجنبًا للنفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطُهْرًا أن كلفها زيادةً على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم من الأقارب وفرض عليها الحجاب الشرعى ليصون لها كرامتها، ويحفظها من النظرات الجارحة والعيون الخائنة ويدْفَعَ عنها مطامع المغرضين الفجار، ولما كان إبداء الزينة والتعرض بالفتنة من أهم أسباب التحلل الخلقى والفساد الاجتماعى فقد أكد البارى جل وعلا ذلك الأمر للمؤمنات بتجنيب إظهار الزينة أمام الأجانب ليسد نوافذ الفتنة، ويغلق أبواب الفاحشة ويحُول دون وصول ذلك السهم المسموم من سهام إبليس وهو النظر، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ

بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وتلاحظ فى هذه الآية أن الله تعالى خص النساء بالخطاب بعد الرجال مع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب لتأكيد الأمر بغض البصر ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة إلا فى حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل، لأن علاقتها به ومقصدها منه كمقصده منها ونظرة أحدهما للآخر على سبيل الفتنة وسوء القصد تؤدى إلى ما لا يحمد عقباه. إن المؤمن يُؤْجَرُ على غض البصر؛ لأنه كفٌ عن المحارم. وقال ﷺ: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود).

**ولقد استثنى الشارع الحكيم بعض الحالات التى لا يأثم فيها المرء بسبب النظر إلى النساء الأجنبيات من هذه الاستثناءات:**

**أولاً:** نظرة المفاجأة فلا إثم فيها ولا مؤاخذة؛ لأنها خارجة عن إرادة الإنسان قال النبى ﷺ لعلى: «يا على لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية» (رواه الترمذى وأحمد)، وعن جرير بن عبد الله «سألت رسول الله ﷺ عن نظر المفاجأة فأمرنى أن أصرف بصرى» (رواه مسلم وأحمد والترمذى)، والنظرة المفاجئة إنما تكون فى أول وهلة ولا يحل لأحد إذا نظر إلى امرأة نظرة مفاجئة، وأحس منها اللذة أن يعود إلى النظرة مرة ثانية فإن ذلك مَدْعاةٌ إلى الفتنة وطريقٌ إلى الفاحشة.

**ثانيًا:** رؤية المرأة من أجل خطبتها، عن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ: نظرت إليها؟ قلت: لا، قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يُؤْدَمَ بينكما» (رواه مسلم والترمذى).

**ثالثًا:** يجوز للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة المشتبه فيها عند تحقيق الجرائم، والقاضى إلى وجه المرأة عند الشهادة، والطبيب إلى وجه المرأة للمعالجة.

* * *

# الحب في الله

الحبُّ في الله من القيم التي تحدد صلة الفرد المسلم بأخيه المسلم تحديدا تنبعث منه العواطف الإسلامية الصادقة حيث يشعرُ كل مسلم أنه أخٌ للآخر مهما نأت بينهم الديار، يُحب له الخير الذى يحبه لنفسه ويكره له الشر الذى يكرهه لنفسه ويجعل حبه وبغضه فى الله فلا يحب حين يحب إلا لله، ولا يبغض حين يبغض إلا لله، وقد وردت أحاديث فى هذا المعنى بألفاظ متقاربة منها قوله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان» (رواه أبو داود والترمذى وأحمد) والحب فى الله من صميم عقيدة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه أحمد).

وهذه القيمة من قيم الإسلام - قيمة الحب فى الله - تحدد علاقة المسلم بأخيه، وتضع حداً فاصلاً بينه وبين غيره من أصحاب المعتقدات الأخرى. فالإيمان حب وبغض؛ حب فى الله وبُغض فى الله، والحب فى الله من أقوى عناصر الإيمان؛ لأن دافعه رضى الله سبحانه وليس من أجل مصلحة دنيوية.

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً زار أخا له فى قرية فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لى فى هذه القرية، فقال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله. قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته» (رواه مسلم)، ورُوى عن ذر بن حبيش قال: (أتينا صفوان بن عسال المرادى فقال: أزائرين؟ قلنا: نعم، فقال: قال رسول الله ﷺ : «من زار أخاه المسلم خاض فى الرحمة حتى يرجع، ومن عاد أخاه المؤمن خاض فى الجنة حتى يرجع» (رواه الطبرانى فى الكبير).

وعلى الحب فى الله والبغض فى الله قام المجتمع الأول الذى أرسى قواعده رسولنا ﷺ وأدرك الذين استجابوا للدعوة أن روابط جنسهم وقرابتهم وعلاقات ودهم

ومحبتهم قد انتهى أمرها واستعاض الإسلام عنها بمشاعر الحب فى الله والبغض فيه ليكون بناءُ المجتمع الإسلامى قائمًا على هذا الحب وحده.

قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [ المجادلة : ٢٢ ] .

هذا هو مجتمع الإسلام. والآية تشير إلى ما كان فى غزوة بدر فقد قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، وهم أبو بكر الصديق أن يقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب ابن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل حمزة وعلى والحارث أقرباء العشيرة؛ لأنهم وقفوا عند قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ويتبع الله هذا بقوله ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ أى أولئك الذين وقفوا عند هذه الآية، وأخذوا أنفسهم بها هم الذين استقر الإيمان فى سويداء قلوبهم، وسُطرت معانيه بين جوانحهم، فحملهم هذا الإيمان الراسخ على ذلك وكانوا أهلاً لتأييد الله ونصره، وتأتى الإشارة إليهم لاستحضار ما وصفوا به فى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ فلا يُنْسَبُ هذا المجتمع إلى الأصل الذى انحدر منه أو الأرض التى عاش عليها، أو الوطن الذى نشأ فيه أو اللغة التى يتكلم بها إنما ينتسب إلى الله، قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

* * *

# الإخـــاء

إن الأخوة رابطةٌ تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام.. مع كل من تربطك به أواصر العقيدة الإسلامية ووشائج الإيمان والتقوى فهذا الشعور الأخوى الصادق يولد فى نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة فى اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة...واتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم ولقد حث الإسلام على الأخوة فى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

لقد كرم الله الإنسان وكان أعظم تكريم له أنه أرسى حياته على دعائم من العقل والإحساس السامى بقيمة الحياة الاجتماعية وضرورتها فحيثما وجد الإنسان وجدت العلاقات الإنسانية ووجدت الحياة الاجتماعية، ثم إن الله سبحانه حين شاء للإنسان أن يبلغ كماله وأن يصل إلى نضجه المقدور أهبط عليه وحيه بوساطة أنبيائه، فحملوا إليه من تعاليم الأخوة بين بنى الإنسان عامة والأخوة بين المؤمنين خاصة والتحذير من كل ما يوهن هذه العلاقة الربانية بين أبناء الدين الواحد والدعوة إلى الإصلاح ما بين المتنافرين والمتخاصمين والمختلفين حتى تتأكد الأخوة بين جميع المؤمنين وتقوى بها دعائم المجتمع. وكذلك كان حديث الحق سبحانه عن الأخوة إخباراً بما ينبغى أن يكون على أنه كائن فعلا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فهذا أمر مستقر لا يكون بدونه إيمان المؤمنين؛ لأنهم حين آمنوا بربهم توحدت وجهتهم، واجتمعت قلوبهم، ومحال أن تتنافر قلوب اجتمعت على الإيمان بالله وعمَّرها حبُّ الله فإن للإيمان جاذبية تدعو أصحابها إلى التقارب والتعاطف والتساند والتساعد وهذا هو المقصود بقوله سبحانه فى محكم كتابه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولقد آخى النبى ﷺ بين أصحابه عقب الهجرة إلى المدينة فقد جاء المهاجرون إليها، ولا عهد لهم بها من قبل، جاءوا إليها وليس معهم سوى إيمانهم بالله

ورسوله، أما المال والولد والوطن فقد هجروا ذلك كله، وباعوه بما عند الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١] فحين جمعت القرعة المهاجرى على الأنصارى كان ذلك حكمًا واجب النفاذ على كليهما أن يشارك أخاه طيِّبة نفسُه فى ماله وفى داره وفى متاعه بل فى زوجاته إن زدن على واحدة وقد حدث ذلك كله على أثر تلك المؤاخاة التاريخية التى استحقت أن ينزل الله فى شأنها قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، وتلكم هى النعمة الكبرى التى أنعم الله بها على المؤمنين وذكرهم بها فى قوله: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه الأخوة تقضى بأنه لا فضل لجنس على جنس ولا للون على لون وبأنه لا أثر لجاه أو حسب فى القربى إلى الله فإن الأكرمين عنده هم عباده المتقون قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولقد أكدت أحاديث رسول الله ﷺ الإخاء الإسلامى، قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا» (رواه مسلم)، وقال ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه أحمد)، وقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، التقوى ها هنا (ثلاث مرات). ويشير إلى صدره» (رواه أحمد). لكن الإسلام لم يتجاهل أن المسلمين قد تغلب الأثرة بعضهم فيستجيبون لنزعات الخلاف فشرع لهم الوقاية التى تدرأ عنهم سوء العاقبة وهى أن يحتكموا إلى شرع الله، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩].

* * *

# الرفـق بالحيـوان

من مظاهر نعم الله تعالى على الناس أن الله خلق الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم. والقرآن إذ يعرض هذه النعمة ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك: ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار فالثياب التى يستدفئون بها مأخوذة من أصوافها وأوبارها فتقيهم برودة الجو، وفى الأنعام منافع متعددة حيث يتخذون من ألبانها شرابًا سائغًا للشاربين ومن لحومها أكلاً نافعًا للآكلين. وفى الأنعام جمال وزينة حين يرونها بالعشى من مسارحها إلى معاطفها التى تأوى إليها، وحين يُخرجونها بالغداة من معاطفها إلى مسارحها ومراعيها. والأنعام تحمل أمتعة الناس وأثقالهم إلى بلد بعيد لم يكونوا بالغيه إلا بعد تعب شديد قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٥-٨].

وفى آية أخرى من القرآن يمتن الله على عباده بأن يُسقيهم لبنًا من بين الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وفى آية أخرى من القرآن يحُض الله سبحانه عباده على التفكر فى مظاهر قدرته حيث يرون الطيور محلقة فى جو السماء ذلك الطيران ليس بمقتضى طبعها وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك كالأجنحة وغيرها. هذا المنظر الجميل قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب، وما يتلفت القلب البشرى عليه إلا حين يستيقظ ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب، قال

تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ النحل : ٧٩ ] .

من أجل هذه النعم الكثيرة التى أنعم الله بها علينا أمرنا الله أن نتعامل مع الأنعام والطيور وغيرها برفق لأنها تتألم كما نتألم وتشعر بالراحة كما نشعر، فينبغى ألا نسبب لها ألمًا أو تعبًا؛ لأن تعذيب الحيوان أمر يؤدى إلى دخول النار عقابًا لمن يفعل ذلك، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « عُذِّبت امرأة فى هِرة (قطة) سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض (يعنى الهوام والحشرات) » (متفق عليه).

أما الرفق بالحيوان والإحساس به يقرب إلى الله ويكون سببًا لمغفرة الله لمن يفعل ذلك فإن كان الحيوان جائعًا قدم إليه الطعام، وإن كان ظمآنًا سقاه، كل هذا يقرب الإنسان من خالقه. عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (التراب) من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقىَ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا يا رسول الله: وإن لنا فى هذه البهائم لأجرا؟ فقال: فى كل كبد رطْبة أجر» (رواه مسلم).

ولقد بلغ الإسلام من الرفق بالحيوان أن رسول الله ﷺ أمر كل من يذبح حيوانًا أن يحسن الذبحة بأن يُحدَ الشفرة التى يذبح بها حتى يكون الذبح سريعًا فلا يتعذب الحيوان، وألا يذبح حيوانًا أمامه حتى لا يخاف ولا يضطرب، وكذلك أمر الذابح أن يريح الذبيحة عند الذبح. عن أبى يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحِدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» (رواه مسلم).

* * *

# الحرص على الفلاح

من حكمة الله عز وجل البالغة أن خلق الإنسان وقدر له أجلاً مسمى عنده ومنحه الله سبحانه وتعالى نعمًا هى فوق حصر الحاصرين وتصور المتصورين وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى ممتنا على خلقه: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وهذه النعم التى تعد منحة من الله تعالى قد جعلها الله سبحانه وتعالى فتنة يختبر بها خلقه وأفلح من فاز بهذا الاختبار من الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، والله سبحانه وتعالى يمنح عباده نعمًا ليشكروه ويأخذ منهم بعضها ليصبروا على قدره، والإيمان نصفان، نصفه صبر ونصفه شكر، ومن هؤلاء الذين يفوزون بخيرى الدنيا والآخرة هؤلاء الذين يجعلون هذه الحياة وسيلة للقاء الله عز وجل ورضاه.

المؤمن حقًا هو الذى يريد حرص الآخرة ليفوز بسعادة الدارين.

حقًا إن المؤمن هو الذى يعمل للآخرة يرجو ثوابها والله سبحانه وتعالى يضاعف له الجزاء إلى سبعمائة ضعف أما من يعمل للدنيا وجلب لذاتها فإن الله عز وجل يؤتيه ما يريد وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها يقول عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، أى ومن كان سعيه موجهًا إلى الآخرة ويريد بأعماله وكسبه ثوابها فإن الله عز وجل يوفقه لصالح الأعمال ويجزيه الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله ومن كان سعيه موجهًا إلى شئون الدنيا وطلب طيباتها وليس له هم فى أعمال الآخرة فإن الله عز وجل يؤتيه ما قسمه له وليس له فى ثواب الآخرة حظ ولا نصيب، ومعنى هذا أن الكيس الفطن هو الذى يفوز أمام هذا الاختبار الذى جعله الله سبحانه وتعالى لخلقه، فمن فاز أمام هذا الاختبار فقد زحزح عن النار وأدخل الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

## المال والولد فتنة:

لقد بين سبحانه وتعالى أن الإنسان بفطرته مجبول على حب المال والولد يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى أن حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار إذ كثير ما يترتب على ذلك الاعتداء على حدود الله وذلك بالوقوع فى المعاصى وارتكاب كبير المحظورات وفى ذلك ما رواه الترمذى وغيره عن كعب بن عياض، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال» وعليه كان على المسلم أن يحذر الوقوع فى المعاصى بسبب الأولاد أو كنز المال وما ينبغى له أن يؤثر عرض الدنيا على ما عند الله من الأجر العظيم، إن من الناس من تلهه الحياة الدنيا بعرضها وبخاصة ما يتعلق بالمال والولد فلا يستطيع أن يوازن حقوق الله عليه ويتبين مشاغله نحو المال والولد، ومنهم من يضيع أداء الصلاة فى أوقاتها بدعوى أن العمل قد أخذ وقته ولا ريب أن من فعل ذلك فقد وقع فى إثم ووزر فما ينبغى أن يشغله شىء عن أداء فريضة الصلاة فى أوقاتها كما أمر الله سبحانه وتعالى، ولقد حذرنا الله عز وجل من هذا المسلك الذى يقع فيه كثير من الناس، وذلك بتزيين من الشيطان، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، أى لا يشغلكم تدبير أموالكم والعناية بشئون أولادكم عن القيام بحقوق ربكم وأداء فرائضه ولقد ورد فى الأثر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

* * *

# اتقاء الشبهات

من رحمة الله عز وجل بالإنسان أن خلقه وسواه ولم يتركه سدى بل بين له طريق الهداية حتى يجتنب السبل ويتبع صراط الله المستقيم وفى هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، من أجل ذلك بين الله سبحانه وتعالى ما أحل وما حرم فى كتابه وسنة نبيه المطهرة بل إن الإنسان بفطرته يمكن أن يعرف الحلال والحرام وذلك إذا كانت فطرته نقية طيبة فالفطرة السليمة توافق دائمًا الحق ولهذا ورد فى الحديث الصحيح عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك إلى ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» (رواه أحمد)، ومع هذا فالله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته قد بين الحلال والحرام لعباده بوحى أوحاه إلى رسله فالحلال بين والحرام بين، حيث إن الحلال المحض بين لا اشتباه فيه وكذلك الحرام المحض ولكن بين الأمرين أمور مشتبهة على كثير من الناس هل هى من الحلال أم من الحرام؟ وفى ذلك ما ورد فى الصحيح عن أبى عبد الله النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» (رواه النسائى).

**اتقاء الشبهات وقاية وحصن حتى لا يقع المسلم فى الحرام:**

إن المتدبر فى هذا الحديث الشريف يتراءى له رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده حيث شرع لهم ما يحصنهم ويقيهم الوقوع فى المعاصى وذلك من باب سد الذرائع ولهذا نجد أن الإسلام حرم أشياء كأنها تفضى إلى الوقوع فيما يغضب الله سبحانه

وتعالى، وذلك من باب سد الذرائع، لقد حرم الإسلام مثلاً الفاحشة وحرم كل مقدماتها ودواعيها من تبرج جاهلى واختلاط عابث، وحرم الإسلام الخمر ولعن النبى ﷺ شاربها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه ولا ريب أن الإنسان السوى إذا لم يتقِ الشبهات فإن ذلك سيجره إلى الوقوع فى الحرام، فمنطقة الشبهات التى يلتبس فيها أمر الحل والحرمة على بعض الناس إما لاشتباه الأدلة وإما للاشتباه فى تطبيق النص على هذه الواقعة.

قد جعل الإسلام من الورع أن يجتنب المسلم هذه الشبهات حتى لا يجره الوقوع فيها إلى مواقعة الحرام وهو - كما يقول أهل العلم - نوع من سد الذرائع وهو أيضًا لون من ألوان التزكية والتربية التى لا توجد إلا فى وحى الله تعالى الذى أنزله على رسوله ﷺ .

**الرسول واتقاء الشبهات:**

لقد طبق الرسول ﷺ اتقاء الشبهات بقوله وسلوكه العملى، يقول ﷺ: «إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لأكلها ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها» (رواه مسلم)، وفى حديث آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ أصابه أرق من الليل فسأله بعض نسائه عن ذلك فقال ﷺ: «إنى وجدت تمرة تحت جنبى فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه» (رواه أحمد) كل هذا يؤكد أن المسلم الذى يريد السلامة لدينه وعرضه عليه أن يجتنب الشبهات ومن ذلك كل موقف يرى أنه قد يجر عليه شبهة مصداقًا لقول النبى ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (رواه الترمذى).

* * *

# اختيار صاحب الخلق الحسن

من أعظم ما ينعم الله به على عبده أن يشرح صدره ليكون محبا للصالحين الذين اتصفوا بمكارم الأخلاق مجتنبًا من عرف بسوء الخلق، ذلك لأن كل من أحب فى الله لا بد أن يبغض فى الله فمن أحب إنسانًا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن رآه يجهر بالمعصية ويصر عليها ويشتم هذا ويسب هذا حتى صار من المفلسين بوصف رسول الله ﷺ فحينئذ لا بد أن يبغضه فى الله لأنه عاص لله وممقوت عند ربه، فمن أحب لسبب فبالضرورة يبغض لضده وإظهار البغض يكون بالإعراض عنه والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه حتى يكون زجراً له، لأنه إذا وجد إعراضًا من الناس فقد يجره هذا إلى أن يلوم نفسه ليعود إلى الله عز وجل بالتوبة والاستغفار، من أجل ذلك فإن الصحبة لا تصلح لكل إنسان والكيس الفطن من اختار الصاحب الذى يعينه على الخير وفى هذا يقول النبى محمد ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»، كل هذا واختيار الصاحب لا بد أن يتميز بخصال وصفات تكون مرغبة فى الصحبة.

**ما هى هذه الصفات التى إذا اتصف بها قوم أو أفراد صاروا أهلاً للصحبة وذلك من منظور إسلامى؟**

لقد تناول الإمام أبو حامد الغزالى هذا الأمر وذكر صفات هى من النفاسة بمكان وقد استقاها من الشريعة الغراء وفى جملتها أن يكون الصاحب عاقلاً حسن الخلق غير فاسق، ولا حريصًا على الدنيا، إذ لا خير فى صحبة الأحمق وقد قيل مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى، ولا ريب أن حسن الخلق أمر لا بد منه لأن من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن واتبع هواه فلا خير فى صحبته ولقد جاء فى ذلك آيات كثيرة تشير إلى هذه المعانى ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى اختيار الصاحب فى سفره فى الهجرة المباركة من مكة إلى المدينة، لقد اختار أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وأبو بكر الصديق قد جمع الله فيه من خصال الخير التى قد لا تتوفر فى صاحب آخر، لقد انفرد بهذه الصفة التى أطلقها عليه رسول الله ﷺ حيث قال له: «وأنت يا أبا بكر الصديق» وفى وصايا أحد الصالحين لابنه فى اختيار صاحب الخلق الحسن حيث قال له: اصحب من إذا خدمته صانك وإن صاحبته زانك، واصحب من إذا مددت يدك لخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك وإذا نزلت بك نازلة واساك، واصحب من إذا قلت صدّق قولك وإن تنازعتما ترك. ويقول سليمان الدرانى رحمه الله: لا تصحب إلا أحد رجلين، رجلاً ترتفق به فى أمر دنياك ورجلاً تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

**ما هى الحقوق التى تنبثق من الأخوة والصحبة؟**

لا ريب أن هناك حقوقًا يوجبها الإسلام فى الصحبة حتى تكون الثمرة المرجوة التى تبتغى منها والتى تثمر خيرى الدنيا والآخرة لقد وصف الله سبحانه وتعالى صحبة عباده الصالحين بأنها قائمة على الأخوة فى الله التى يمتد حبلها فى الدنيا والآخرة، يقول سبحانه: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [ الزخرف: ٦٧ ].

من أجل ذلك فإن للصحبة حقوق فى المال وفى الإعانة بالنفس واللسان والقلب ولذلك قالوا بأن مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، فهما يتعاونان على غرض واحد، وكذلك الأخوة فى الله إنها تتم بالطريقة المثلى إذا قامت على مقصد واحد وهو التعاون على البر والتقوى، وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء فالصاحب الصالح هو الذى إذا استنصحته نصحك دون ميل عن الحق أو هوى فى النفس وهو يسكت عن إفشاء السر كما أنه يذكر المحاسن ويغفل عن المساوئ إذا وجد لها فى الخير محملاً.

* * *

# حفظ السر

من حكمة الله عز وجل البالغة ورحمته بعباده أن جعل سرائر خلقه له سبحانه وتعالى وحده فهو عز وجل يعلم السر وأخفى وهو سبحانه وتعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ ﴾ [الرعد: ٩، ١٠]، ولا يستقيم حال المجتمع إلا بحفظ الله تعالى لخلقه ولو أن الله تعالى أعطى قدرة للإنسان ليطلع على سريرة الآخرين لأدى ذلك إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير، والكيس الفطن من آثر الصمت إلا فى خير ولهذا قال النبى محمد ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» (رواه البخارى) ومن صفات الأخوة فى الله أنهم يحرصون على حفظ أسرارهم الخاصة وأسرار بعضهم بعضًا، ومن القربات عند الله عز وجل أن يحفظ الرجل سر زوجه فلا يفشى ما يكون بينهما من الأسرار الزوجية التى جعلها الله سبحانه وتعالى فى ستر وحجاب، وبها كرم الإنسان على سائر الدواب التى خلقها الله عز وجل، ولقد جاء فى القرآن الكريم الثناء على الزوجات الصالحات وبين عز وجل بأنهن ﴿ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤]، ومن الغيب الذى أوجب الإسلام أن يحفظ ما يكون بين الزوج وزوجه من علاقة خاصة فلا يصح لذى خلق حسن ومروءة أن يتحدث فى المجلس مع صديقه بما يكون بينه وبين زوجه لأنه سلوك ذميم يخل بإنسانية الإنسان وكرامته عند الله والناس، ولهذا ورد عن نبينا محمد ﷺ قال: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها» (كنز العمال للمتقى الهندى)، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: «مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى سترة ثم يخرج فيحدث فعلت بأهلى كذا وفعلت بأهلى كذا» فسكتوا فأقبل على النساء فقال: «هل منكن من تحدث؟ فجثت فتاة على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها، إى والله

إنهم يتحدثون وإنهن يتحدثن فقال ﷺ: هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك كمثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه » (مسند أحمد).

**حفظ السر بين الأخ وأخيه بوجه عام:**

إن من صفات المؤمنين حقًا السكوت عن إفشاء السر لأنهم يعلمون بأنه سبيل إلى الغيبة والنميمة وهما من الكبائر فالمؤمن حقًا يعلم بأن أخاه نازل منزلته ولقد بين النبى محمد ﷺ حال المؤمن الذى يستر عورة أخيه فقال: «ومن ستر عورة أخيه ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة» (الإتحافات السنية)، ولقد قيل لأحد الصالحين كيف حفظك السر قال: أنا قبره فإن صدور الأحرار قبور الأسرار، وفى وصية العباس عم النبى ﷺ لابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما إنى أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضى الله تعالى عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ منى خمسًا؛ لا تفشين له سراً ولا تغتابن عنده أحداً، ولا يُجرين عليك كذبًا، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة، ولا ريب أن هؤلاء الذين يفشون أسرار الناس ويتحدثون عنهم بما لا يعنيهم دون حق، هم ضالون مضلون وسلوكهم هذا يؤدى إلى الفحشاء والبغضاء وقطع أواصر القربى بين الناس وهو سلوك مرده تزيين الشيطان وبخاصة فى المجالس التى تهوى إفشاء الأسرار ويصدق فيهم قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، ومن أخطر ما يصاب به المرء أن يستره الله سبحانه وتعالى لذنب ألم به ثم بوساوس من الشيطان وتزيين منه يفشى سر نفسه ويتباهى بذنبه ويجهر به، وهنا يقع فى خسران الدنيا والآخرة، من أجل ذلك كان حفظ السر إلا لحاجة خُلُق أولياء الله وخاصته الذين حرصوا على أن يكون نطقهم ذكراً وقولهم هو النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم.

* * *

# إفشاء السلام

فقد شرع الإسلام خصائص ومزايا يعرف بها المسلم وبها كرمه الله سبحانه وتعالى وكلما ازداد حرصًا عليها ازداد قربًا عند الله عز وجل، ومن ذلك تحية الإسلام التى يعرف بها المسلم وهذه التحية أخذت من اسم من أسماء الله عز وجل، إنها تحية تبدأ بالسلام الذى يعنى الأمان فإذا لقى المسلم أحداً من خلق الله بادره بقوله «السلام عليكم»، وفى هذا ذكر لاسم من أسماء الله الحسنى فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه فى الأرض فأفشوه بينكم» (مجمع الزوائد للهيثمى)، من أجل ذلك جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة بيان لهذه التحية المباركة وفضلها عند الله سبحانه، يقول عز وجل: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦]،أى وإذا حياكم أحد بتحية فردوها بتحية مثلها أو تحية أحسن منها فقولوا لمن قال: السلام عليكم، وعليكم السلام، أو وعليكم السلام ورحمة الله، فالأحسن أن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ومعنى هذا أنه من الإحسان أن يزيد المجيب على المبتدئ كلمة أو أكثر تخلقًا بمكارم الأخلاق التى تدعو إلى التنافس فى الخير وتسابق الخيرات حتى يزداد المؤمن وداً وتتآلف القلوب وهو ما دعا إليه الإسلام، يقول النبى محمد ﷺ: «لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا» (صحيح البخارى)، ثم إن حسن الجواب قد يكون بمعناه أو بكيفية أدائه، فمن قال: السلام عليكم بصوت خافت، فالأولى أن يقال له: وعليكم السلام وبصوت أرفع وبإقبال يشعر بالعناية والتكريم، ومن فعل ذلك يكون قد حيا بتحية أحسن من تحية المبتدئ فى صفتها، وإن كانت فى مثلها فى لفظها، وفى هذا يقول أهل العلم إن الجواب على التحية له مرتبتان، أدناها ردها بعينها، وأعلاها الجواب عنها بأحسن منها، والمجيب مخير بينهما، إلا أن الأولى أن يجيب بالأحسن، هذا ولقد علمنا الإسلام أن نرد على السلام إذا ورد من خلق الله تعالى دون استثناء، فلقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن

رسول الله ﷺ قال: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسيًا فإن الله عز وجل يقول: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» (مجمع الزوائد للهيثمى)، ولا ريب أن هذا من الآداب الإسلامية السامية والناس إذا ألفت هذه الآداب عرفوا فضل الإسلام.

**هل هناك أحاديث وردت فى إفشاء السلام وفضله؟**

لقد وردت أحاديث كثيرة عن نبينا محمد ﷺ تحض على إفشاء السلام وفضله، وذلك لأنها سبيل إلى الألفة والتحاب وإزالة الوحشة، وغرس الأمان بين الناس، فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه أبو داود)، وبيّن نبينا محمد ﷺ أن الطريق إلى إزالة البغضاء والحسد يتأتى فى إفشاء السلام، وهو مفتاح الجنة وسبيل إلى رضوان الله تعالى، فعن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هى الحالقة، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين، والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه أحمد)، ثم إن نبينا محمداً ﷺ قد بين أن تحية الإسلام سبيل إلى الود ونبذ البغضاء والشحناء، ومن ذلك قوله ﷺ: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له فى المجلس، وتدعو له بأحب الأسماء إليه» (مستدرك الحاكم).

**الحرص على تحية الإسلام دون غيرها خلق دعا إليه الإسلام:**

إن هؤلاء الذين بدلوا تحية الإسلام بتحايا أخرى وقد تكون غريبة على المجتمع الإسلامى، وذلك مثل التحايا التى تكون بألفاظ غير عربية، نقول: أن هذا خلق بعيد عن الطريقة المثلى، وهؤلاء يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، ويعد راسبًا من رواسب الجاهلية، والأولى أن نحرص على تحية الإسلام ففيها الأمان والخير وفيها اسم من أسماء الله الحسنى.

* * *

## اجتناب تتبع عورات الناس

من صفات المؤمن حقًا إنه إذا قال صدق، وإذا قيل له صدق، وهو يغلب دائمًا حسن الظن بالناس، إلا إذا بدا له بالبرهان ما يخالف ذلك، وهو حينئذ لا يستعجل فى الحكم حتى يتثبت، من أجل ذلك دعانا ربنا إلى اجتناب كثير من الظن وبين سبحانه وتعالى بأن بعضه إثم لأنه قد يؤدى إلى إلصاق التهمة بإنسان وهو منها برىء، قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢]، ولا ريب أن عدم الثقة فى الآخرين يؤدى إلى البلبلة والشعور بالخوف والفزع والقلق وعدم الأمن، وكل ذلك مرده سوء الظن ومنهج الله عز وجل الأقوم يربى الأمة المسلمة على نظافة الظاهر والباطن معًا، ولهذا نهى الإسلام عن سوء الظن وقرنه بالنهى عن التجسس، وذلك لأن هناك رباطًا وثيقًا بين سوء الظن والتجسس، ولقد ورد فى الصحيحين أن النبى محمداً ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا» (رواه البخارى)، والتحسس هو البحث عما يكتم عنك، والتجسس طلب الأخبار والبحث عنها، ومن الخلق الذميم حرص الإنسان على سماع حديث الناس مع كراهتهم لذلك، وهو ما يسمى بالتصنت، لذلك فهو خلق نهى عنه الإسلام، إذا وقع بين الأفراد فى داخل المجتمع، لأنه صورة من صور تتبع عورات الناس ومحاولة كشف المستور، وهو خلق يخالف حقوق الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى، ولذلك جاء الوعيد والنذير على لسان نبينا محمد ﷺ لمن تسمع حديث قوم يكرهون أن يسمعه، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال: «ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة» (المعجم الكبير للطبرانى)، والآنك: هو الرصاص المذاب. إن من الناس من يجد لذة بتزيين من الشيطان فى سماع أخبار الناس التى لا تعود عليه بنفع، ونبينا محمد ﷺ قد بين بأن الخلق الحسن يتأتى فى التخلق بهذا الخلق الطيب، وهو: من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه، والإنسان إذا أغلق بابه على نفسه كان من الأولى تركه وحسابه على الله عز وجل، إلا إذا كانت هناك حاجة

تتعلق بأمن المجتمع وظهرت بوادر تدل على أن هناك عملاً يضر بالمجتمع أو يزعزع أمنه، يقول عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: (حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر رضى الله تعالى عنه: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾، وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم، وقال أبو قلابة: حدث عمر ابن الخطاب أن أبا محجن الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل فقال أبو محجن: إن هذا لا يحق لك قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه.

**الإسلام يحرم تتبع عورات الناس فما هى الأدلة على هذا؟**

لقد حرص الإسلام على عدم تتبع عورات الناس لما فيه من محاولة كشف سريرتهم والأولى بالمسلم أن يأخذ الناس بظاهرهم وحسابهم بعد هذا على الله عز وجل، ومن خلق المسلم أنه يستر عورة أخيه، ولا يتتبع عورته يقول ﷺ: «من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة فى قبرها» (رواه أحمد)، ونبينا محمد ﷺ قد حذر هؤلاء الذين يتتبعون عورات الناس من التدنى إلى خصال المنافقين حيث خاطبهم بقوله فى خطبة على منبره الشريف حيث نادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه الله عز وجل، ولو فى جوف رحله» (رواه الترمذى) ثم إنه من أجل الحفاظ على حرمات الناس حرم الإسلام أن يطلع الإنسان على قوم دون إذن منهم، وأوجب القرآن ذلك على الناس الذين دخلوا تحت راية الإسلام فقال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

* * *

# حسن اختيار الألفاظ

لقد كان ﷺ يتخير فى خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأبعدَها من ألفاظ أهل الجفاء والفُحْش، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا ولا فظًا، فعن أبى عبد الله الجدلى قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ فى أهله؟ قالت: «كان أحسن الناس خلقًا، لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح» (أخرجه البخارى فى صحيحه ٨/٥٥، ومسلم فى صحيحه - كتاب المساجد باب ٤٨، وكتاب الأدب باب ٥، وكتاب الفضائل باب ١٣).

لقد أمر الله عباده أن يختاروا القول الحسن عند كلامهم مع الناس جميعًا سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وكان الرسول ﷺ يتخير اللفظ المناسب لكل واحد من الناس، فكان رسول الله ﷺ يكره أن يستعمل اللفظ الشريف فى حق من ليس كذلك فكان ﷺ يمنع أن يقول للمنافق سيد، وكان يمنع تسمية أبى جهل بأبى الحكم، كذلك غيَّر اسم أبى الحكم من الصحابة بأبى شريح وقال: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم» (رواه النسائى).

وكذلك نهى ﷺ المملوك أن يقول لسيده ربى، وللسيد أن يقول لمملوكه: عبدى وأمتى، وقال ﷺ لمن ادعى أنه طبيب: «أنت رفيق والله الطبيب» (رواه أحمد). والجاهلون يسمون الكافر الذى له علم بشىء من الطبيعة (حكيمًا)، وهذا أمر لا يجوز، ولقد علم النبى ﷺ الناس كيف يختارون اللفظ الحسن فقال ﷺ للخطيب الذى قال: (ومن يعصهما فقد غوى)، أى ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، قال له النبى ﷺ: «بئس الخطيب أنت» (رواه مسلم)؛ لأنه جمع الله ورسوله فى لفظ واحد وهذا لا يجوز، ولقد علمنا ﷺ كيف نختار الألفاظ لنتقى الشرك فقال ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان» (رواه أبو داود)، وفى معناه قول من لا يتوقى الشرك فينبغى على الإنسان أن لا يقول: (ما لى إلا الله وأنت، وأنا متوكل على

الله وعليك، وهذا من الله ومنك)، وأمثال هذه الألفاظ التى يجعل قائلها المخلوق نداً لله، وهى أشد منعًا وقبحًا من قول الإنسان ما شاء الله وشئت، فأما إذا قال: ما لى إلا الله ثم أنت فلا بأس بذلك.

ولقد نهى الرسول ﷺ المسلمين أن تُطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها، فنهى عن سب الدهر وقال: «إن الله هو الدهر» (رواه أحمد)، إن سب الدهر أى الزمن مثل الأيام والليالى والشهور والسنين فيه ثلاث مفاسد: أحدها سب من ليس بأهل، الثانية أن سبه متضمن للشرك، فإنه ما سبَّه إلا لظنه أنه يضر وينفع، وأنه ظالم، الثالثة: أن السب إنما يقع على فاعل هذه الأفعال التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وكذلك نهى النبى ﷺ أن نقول للشيطان: أخزاه الله وقبحه الله، لأن ذلك يفرح الشيطان ويشعره بالتعاظم والقوة، فعن أبى مليح عن رجل قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: «لا تقل: تعس الشيطان فإنك إن قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتى ولكن قل: باسم الله فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب» (رواه أبو داود)، فإنه ينبغى على المسلم أن يستعيذ بالله من وساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

* * *

# الحفاظ على الصحة

قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، إن الله سبحانه وتعالى أرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن فى الكمية والكيفية فمتى جاوز ذلك كان إسرافًا، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعنى عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيهما، فحفظ الصحة كله فى هاتين الكلمتين الإلهيتين.

إن الصحة والعافية من أجَل نعم الله على عباده وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة من أجل النعم على الإطلاق، فحقيق بمن رُزق حظا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضادُّها.

ولهذا قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (رواه البخارى)، وفى الترمذى مرفوعًا «من أصبح معافىً فى جسده، آمنًا فى سرْبه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»، وفى الترمذى أيضًا مرفوعًا «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نصح لك جسمك؟ ونرويك من الماء البارد؟»، ومن هنا قال من قال من السلف فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، قال: عن الصحة ولأحمد مرفوعًا: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيرًا من العافية» فجمع بين عاقبتى الدين والدنيا ولا يتم صلاح العبد فى الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقاب الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا فى قلبه وبدنه، وفى سنن النسائى مرفوعًا: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة»، وهذه الثلاثة أعنى العفو والعافية والمعافاة تضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو والحاضرة بالعافية والمستقبلة بالمعافاة.

لقد كان رسول الله ﷺ يحافظ على صحته، فكان قدوة حسنة لأمته، فلم يكن

من عادته ﷺ حبسُ النفس على نوع واحد من الأغذية، فإنه مضر ولو أنه أفضل الأغذية، بل يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة، والخبز والتمر ونحو ذلك. قال أنس رضي الله عنه: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط إن اشتهاه أكله، وإلا تركه» (متفق عليه بلفظ، وإن كرهه فتركه)، ومتى أكل الإنسان ما لا يشتهيه كان تضرره به أكثر من نفعه، وكان ﷺ يحب اللحم، وأحبه إليه الذراع ومقدم الشاة، وهو أخف على المعدة وأسرع هضمًا، وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل، وهذه الثلاثة أعنى اللحم والحلوى والعسل من أنفع الأغذية للبدن والكبد والأعضاء.

إن أكل الفاكهة من أسباب حفظ الصحة، ولذلك كان ﷺ يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ولا يمتنع عنها، وهذا من أسباب حفظ الصحة فإن الله سبحانه بحكمته جعل فى كل بلد فاكهة، وكان رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نستفيد من الشرب فصح عنه ﷺ أنه نهى عن الشرب قائمًا وأمر من فعله أن يتقيأه، وصح عنه أنه شرب قائمًا للحاجة، وكان ﷺ يتنفس فى الشراب ثلاثًا ويقول: «إنه أروى (أى أشد ريًا) وأبرأ (أى يشفى من العطش)، وأمرأ (أى أكثر لذة وسهولة إذا دخل البدن وخالطه)»، وللترمذى عنه مرفوعًا: «لا تشربوا نفسًا واحدًا كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى، وسموا الله إذا شربتم واحمدوا الله إذا أنتم فرغتم».

* * *

# إبـــرار المُقسِـم

من حق المسلم على المسلم أن يبرَّ قسمه إذا أقسم عليه أن يفعل شيئًا مباحًا، عن أبى عُمارة البَراء بن عازب رضى الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع ومما أمرنا به إبرارُ المقسم».

ومعنى الإبرار بالقسم أنه إذا أقسم عليك أخوك بشىء فبِّره ووافق على ما أقسم عليه فإذا حلف وقال: والله لتفعلن كذا وكذا فإن من حقه عليك أن تبرَّ بيمينه وأن توافقه إلا إذا كان فى ذلك ضرر عليك مثل: لو حلف عليك أن تخبره عما فى بيتك من الأشياء التى لا تحب أن يطلع عليها أحد فلا تخبره، وكذلك إذا حلف عليك أن تعمل شيئًا فيه معصية فلا تبره مثل: لو أقسم عليك أن تعطيه نقوداً ليشترى بها مخدرات أو خمر وغير ذلك من الأمور المحرمة فلا تجبه لذلك، أو حلف عليك بشىء يضرك كأن يقول أبوك مثلا: والله لا تحج البيت، والحج واجب عليك فإنك لا تطيعه؛ لأن فى هذا تركًا للواجب، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، أو حلف عليك ألا تزور أمك، وقد طلقها، وصار بينه وبينها مشاكل فكرهها، فقال لك: والله لا تذهب إلى أمك فهذا لا تطعه، وذلك لأنه آثم بكونه يحول بينك وبين صلة الرحم، وصلة الرحم واجبة، وبر الوالدين واجب فلا تطعه.

ومن ذلك أيضًا إذا حلف ألا تزور أحداً من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تطعْه، ولا تبره بيمينه. ولو كان أباك؛ لأن صلة الرحم واجبة، ولا يحل له أن يحلف مثل هذا الحلف، وصلة الرحم إذا قام بها الإنسان فإن الله تعالى يصله، فقد تعهد الله للرحم أن يصل من وصلها، وأن يقطع من قطعها، فإذا انتفت الموانع فإن الأوْلى أن تبر بهن، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضينْ أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك

لك، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد : ٢٢، ٢٣ ](رواه البخارى ومسلم).

وهنا مسألة وهى أنه ربما يحلف هو وتحلف أنت فهنا من الذى يبر بقسمه الأول هو الذى يبر بقسمه، والثانى يحنث ويكفر عن يمينه. ثم إنى أشير عليكم بأمر مهم، أنك إذا حلفت على يمين فقل: إن شاء الله، ولو لم يسمعها صاحبك، لأنك إذا قلت إن شاء الله يسَّر الله لك الأمر حتى تبر بيمينك، وإذا قدر أنه حصل الذى لا تريد فلا كفارة عليك وهذه فائدة عظيمة، لقول النبى ﷺ: «من حلف على يمين فقال: إن شاء الله لم يحنث»، وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائمًا، اجعل الاستثناء بـ (إن شاء الله) على لسانك دائمًا حتى يكون فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: أن تيسر لك الأمور.

الفائدة الثانية: أنك إذا حنثت ما يلزمك الكفارة.

* * *

# الوفاء بالعهد

إن الله سبحانه وتعالى بين فى كتابه بأن الذين ينقضون عهدهم المرة بعد المرة هم شر الدواب قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٥٧].

إن الله سبحانه وتعالى يأمر بالوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وتتجلى روعة الإسلام فى الأمر بالوفاء بالعهد مع العدو فضلا عن الأمر بالوفاء بالعهد مع الصديق، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، والمعنى: وإما تعلمن - يا محمد - من قوم بينك وبينهم عهد نقض العهد خيانة منهم بأمارات تلوح لك تدل على غدرهم فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستوٍ ظاهر: بأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبذ العهد سواء؛ لأن الله لا يحب الخائنين وإن من مظاهر الخيانة التى يبغضها الله تعالى أن يحارب أحد المتعاهدين الآخر دون أن يعلمه بإنهاء عهده.

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد عن سليمة بن عامر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب منها حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقده ولا يشدها حتى ينقضى أحدهما أو ينبذ إليهم على سواء». فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة.

وقال الفخر الرازى: قال أهل العلم: آثار نقض العهد إذا ظهرت فإما أن تظهر ظهوراً محتملا، أو ظهورا مقطوعًا به، فإن ظهرت آثار نقض العهد ظهوراً محتملا

وجب الإعلام على ما هو مذكور في الآية : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ وذلك لأن بني قريظة عاهدوا النبي ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله خوفُ الغدر منهم به وبأصحابه فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء، ويأذنهم بالحرب أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعًا به فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد وذلك كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة، وهم في ذمة النبي ﷺ وصل إليهم جيش رسول الله ﷺ بمر الظهران، وذلك على أربعة فراسخ من مكة (الفخر الرازي ١٥/ ٢٢٠). أي أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله ﷺ الذي جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان.

وبذلك نرى تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أسمى آفاق الوفاء والشرف والأمان وتحقر من شأن الخيانة والخائنين، وتتوعدهم بالطرد من رحمة الله. ولقد بين الله سبحانه في كتابه أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها، لكن الذين عاهدوا المسلمين ولم ينقضوا عهودهم، ولم ينقضوهم شيئًا من شروط العهد ولم يعاونوا عليهم أحداً من الأعداء فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

* * *

## التوسل إلى الله بصالح الأعمال

إن الدعاء إلى الله بصالح الأعمال يُنجى الإنسان من الشدائد ويُفرِّج الكربات قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

لقد أخبر الرسول ﷺ أن ثلاثة رجال دخلوا الغار حين أواهم المبيت فتدحرجت عليهم صخرة من الجبل حتى سدت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها؛ لأنها صخرة كبيرة، فرأوا أن يتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فذكر أحدُهم بره التام بوالديه، وذكر الثانى عفته التامة، وذكر الثالث ورعه ونصحه. أما الأول فيقول: «إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً»، لقد كان لهذا الرجل غنم يسرح بها، ثم يرجع آخر النهار، ويحلب الغنم ويعطى أبويه الشيخين الكبيرين ثم يعطى بقية أهله وعبيده، فأبعد به طلبُ الشجر الذى يرعاه ذات يوم فرجع فوجد أبويه قد ناما فنظر هل يسقى أهله وعبيده قبل أبويه أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان، فرجح الثانى، يعنى أنه بقى فأمسك الإناء بيده حتى طلع الفجر وهو ينتظر أبويه فلما استيقظا وشربا اللبن سقى أهله وعبيده قال: «اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه» يعنى إن كنتُ مخلصا فى عملى هذا، فعلته من أجلك ففرج عنا ما نحن فيه، فتقبل الله منه هذه الوسيلة وانفرجت الصخرة لكن انفراجًا لا يستطيعون الخروج منه. فهذا يدل على فضيلة بر الوالدين وأنه من الأعمال الصالحة التى يُفرج بها الكربات ويُزيل بها الظلمات.

والثانى: توسل إلى الله عز وجل بالعفَّة التامة، وذلك أنه كان له ابنة عم، وكان يُحبها حبًا شديداً كأشد ما يحب الرجال النساء فراودها عن نفسها أى بالزنى ليزنى بها، ولكنها لم توافق وأبت، فأصابها فقر وحاجة فاضطرت إلى أن تجود بنفسها من أجل الضرورة وهذا لا يجوز، ولكن هذا الذى حصل فجاءت إليه فأعطاها مائة

وعشرين ديناراً من أجل أن تمكنه من نفسها، ففعلت من أجل الحاجة والضرورة، فلما جلس منها الرجل مجلس الرجل من امرأته على أنه يريد أن يفعل بها قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة: «اتق الله ولا تفضن الخاتم إلا بحقه» فخوفته بالله عز وجل وأشارت إليه يعنى إن أراد هذا العمل بالحق فلا مانع عندها، لكن كونه يفض الخاتم بغير الحق فهذا ما لا تريده فهى ترى أن هذا من المعاصى، ولذلك قالت له: «اتق الله» فلما قالت له هذه الكلمة التى خرجت من أعماق قلبها دخلت فى أعماق قلبه، وقام عنها، وهى أحبُّ الناس إليه لكن أدركه خوف الله عز وجل فقام عنها، وترك لها الدنانير التى أعطاها لها مائة وعشرين ديناراً ثم قال: اللهم إن كنت فعلت هذا لأجلك فافرُج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج.

أما الثالث فتوسَّل إلى الله عز وجل بالأمانة والإصلاح والإخلاص فى العمل فإنه يذكر أنه استأجر أجراء على عمل من الأعمال فأعطاهم أجورهم إلا رجلاً واحداً ترك أجره فلم يأخذه، فقام هذا المستأجر فثمر المال فصار يتكسب به بالبيع والشراء، وغير ذلك حتى نما وصار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وأموال عظيمة فجاءه بعد حين فقال له: يا عبد الله: أعطنى أجرى فقال له: كل ما ترى فهو لك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: لا تستهزئ بى، الأجرة التى لى عندك قليلة كيف لى كل ما أرى من الإبل والبقر والغنم! لا تستهزئ بى، فقال له:: هو لك فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئًا، ثم قال: اللهم إن كنت فعلت ذلك من أجلك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وانفتح الباب فخرجوا يمشون؛ لأنهم توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم التى فعلوها إخلاصًا لله عز وجل.

* * *

# الاعتصام بالكتاب والسنة

إن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يؤدى إلى الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة الطيبة فى الدنيا، والسعادة التى ليس بعدها سعادة فى الآخرة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٤ ].

إن رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى ما يحييهم إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معانى الحياة... إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات، إنه يدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الإنسان وتكريمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفًا متساوين فى مواجهتها لا يتحكم فرد فى شعب، ولا طبقة فى أمة ولا جنس فى جنس، ولا قوم فى قوم ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين فى كل شريعة صاحبها الله رب العباد، يدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة المتمثلة فى الضوابط التى وضعها خالق الإنسان، والعليم بما خلق، هذه الضوابط التى تصون الطاقة البانية من التبدد، ولا تكبت هذه الطاقة، ولا تحطمها، ولا تكفها عن النشاط الإيجابى البناء... يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وبربهم والانطلاق فى الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته، وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده خالق العباد وتحقيق إنسانيته العليا التى وهبها الله له فاستلبها منه الطغاة.

إنه ﷺ يدعو المؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه فى الأرض وفى حياة الناس، وتحطيم ألوهية العبيد المدَّعاة، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه، حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده،

وعندئذ يكون الدين كله لله، حتى إذا أصابهم الموت فى هذا الجهاد كان لهم فى هذه الشهادة حياة.

إن الله سبحانه أمر أهل الإيمان أن يتقوه فى جميع حياتهم حتى يموتوا على ذلك، وأمرهم بالاعتصام بحبله وهو دينه الذى بَعث به نبيه ﷺ وهو الإسلام وهو التمسك بالقرآن والسنة ونهى عن التفرق فى ذلك، لما يُفْضى إليه التفرُق من ضياع الحق وسوء العاقبة، واختلاف القلوب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ولقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الهداية فى طاعة الرسول ﷺ واتباع ما جاء به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ولا شك أن طاعته ﷺ طاعة لله عز وجل واتباع لكتابه العظيم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

* * *

# تطهير القلب من الشرك

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أى وما خلقت الجن والإنس إلا لآمُرَهم أن يعبدونى ويفْردونى بالعبادة، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من عهد نوح عليه السلام إلى عهد نبينا محمد ﷺ، والتوحيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى خالق العباد ورازقهم، ومحييهم ومميتهم والدليل على ربوبيته تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا التوحيد لا يدخل الإنسان فى دين الإسلام ولا يعصم دمه وماله ولا ينجيه فى الآخرة من النار إلا إذا أتى معه بتوحيد الألوهية، وهو القسم الثانى من أقسام التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة؛ لأنه المستحق لأن يعبد لا سواه مهما سمت درجته وعلت منزلته، وهو التوحيد الذى جاءت به الرسل إلى أممهم لأن الرسل عليهم السلام جاؤوا بتقرير توحيد الربوبية الذى كانت أممهم تعتقده، ودعوتهم إلى توحيد الألوهية كما أخبر الله عنهم فى كتابه المجيد، قال الله مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وهكذا صالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

والقسم الثالث من أقسام التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات، فعلى الإنسان المسلم أن يفرد ربه بجميع أنواع العبادات مخلصًا لله فيها وأن يأتى بها على الوجه الذى سنه رسول الله ﷺ قولا وعملا فمن صرف شيئًا منها لغير الله يكون مشركًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقوله: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾

[الجن: ١٨]، فأحد جاءت نكرة فى سياق النهى تعم كل مخلوق رسولا كان أو ملكًا أو صالحًا.

إن أول شرك حدث كان فى قوم نوح عليه السلام لما أرسل الله إليهم نوحًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام عاندوا وأصروا على شركهم، وقابلوا نوحًا بالكفر والتكذيب وقالوا كما فى القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فعلى الإنسان المسلم أن لا يذبح إلا لله ففى الحديث الصحيح: «لعن الله من ذبح لغير الله» (أخرجه مسلم - كتاب الأضاحى)، ولا ينذر ولا يطوف إلا لله، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وعلى المسلم ألا يحلف إلا بالله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وفى لفظ «فقد كفر» (رواه أحمد)، وعلى المسلم ألا يستعين إلا بالله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا يتوكل إلا على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ولا يرهب إلا الله ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، ولا يستغيث إلا بالله ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

إن من يتوجه فى عبادته إلى غير الله يكون مشركًا شركًا أكبر لا يغفر الله له إلا أن يتوب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

* * *

# التجارة مع الله

إن القرآن الكريم يهتف بالذين آمنوا إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة، تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

فى هذه الآية يبدأ النداء باسم الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يليه الاستفهام الموحى فالله سبحانه هو الذى يسألهم ويشوقهم إلى الجواب ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ ومن ذا الذى لا يشتاق؛ لأن يَدُله الله على هذه التجارة؟ ثم يجىء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وهم مؤمنون بالله ورسوله فتُشْرِقُ قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ثم يذكر الله الشطر الآخر لكمال التجارة، وهو قوله تعالى: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ثم يُعَقِّب الله على عرض هذه التجارة التى دلهم عليها بالتحسين والتزيين، قال تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ثم يفصل الله هذا الخير فى آية مستقلة؛ لأن التفصيل بعد الإجمال يُشوِّق القلب إليه، ويُقره فى الحس ويمكِّن له قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وهذه وحدها تكفى فمن ذا الذى يضمن أن يُغْفَر له ذنبُه ثم يتطلع بعدها إلى شىء؟ أو يدخر فى سبيلها شيئًا؟ ولكن فضل الله ليست له حدود، يضيف الله إلى فضله السابق قوله: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة حين يفقد هذه الحياة كلها، ثم يُعوَّض عنها تلك الجنات وهذه المساكن فى نعيم مقيم ... وحقا .... ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرابحة، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن من الدنيا ويأخذ الآخرة. فالذى يتجر بالدرهم فيكسبُ عشرة يَغْبِطُه كل من فى السوق فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض، ومتاعٍ محدود فى هذه الحياة الدنيا فيكسب به خلودا لا يُعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعًا غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة قال لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى ما منعتم منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ فقال: الجنة، قالوا: ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل (أى لا نفسخ البيعة ولا نطلب فسخها) (الدر المنثور للسيوطى)، فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال بعض العلماء: لا نرى ترغيبًا فى الجهاد الذى هو أساس التجارة مع الله أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولم يجعل المعقود عليه كونُهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضًا لإعلاء كلمته ونصر دينه وجعله مسجلا فى الكتب السماوية، وجعل الله وعده حقا ولا أحد أوفى من وعده.

جدير بنا أن ننظر إلى قول الله فى سورة الصف: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١١]، وقوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١١١]، فنجد أن فى الآيتين تقييد القتال والجهاد بأنه فى سبيل الله وهذا هو هدف الإسلام من الجهاد والقتال لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

* * *

# الأمانة

الأمانة كل ما يجب على المسلم أن يحفظه، ويصونه، ويؤديه، إنها شعوره بمسئولية عن كل ما يوكل إليه، وبذل الجهد فى تأديته على النحو الذى يرضاه الله جل فى علاه، ولعل هذا ما يفهم من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع النبى ﷺ يقول: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (أخرجه البخارى).

فالإسلام جعل من الأمانة معنى واسعًا، هو ما يشير إليه هذا الحديث الشريف.

وقد تكرر ذكر الأمانة فى القرآن الكريم، ومن الآيات التى ورد فيها ذكرها:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذه الآية فى الرهن، والشىء المرهون أمانة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، والآية تحذر المسلمين من أن يأمنوا أهل الكتاب خاصة اليهود.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٧]، والآية نزلت لما أخذ على رضي الله عنه مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة سادنها قسراً، لما قدم النبى مكة عام الفتح، فأمره الرسول ﷺ برده إليه.

واشتهر رسول الله ﷺ بالأمانة حتى عرف بالصادق الأمين، وكانت أمانته ﷺ سببًا فى زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها، لأنه ﷺ لما عاد إلى مكة وقص عليها ميسرة أخبار رسول الله ﷺ قررت الزواج به.

وحرص الرسول ﷺ على أداء الأمانة فى أصعب الأوقات، وأحلك الساعات، فعند خروجه من بيته مهاجراً إلى المدينة قال لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه: «نم على فراشى، واتشح ببردى الأخضر، فنم فيه، فإنه لا يخلص إليك شىء تكرهه»، وأمره أن يؤدى ما عنده من وديعة وأمانة وغير ذلك، (سيرة ابن هشام ١/١٢٧).

وكان رسول الله ﷺ يرغب فى الأمانة ويحث أصحابه عليها فقال لهم: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا صلاة له، وموضع الصلاة من الدين، كموضع الرأس من الجسد» (كنز العمال ٣/٦٣).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «اضمنوا لى ستًا من أنفسكم، أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتهم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم» (رواه أحمد والحاكم).

* * *

# طاعة الزوجة لزوجها

لقد روى الإمام مسلم فى صحيحه أن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية - خطيبة النساء - أتت إلى النبى ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء كافة، فآمنا بك واتبعناك، وإنا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم فى هذا الأجر؟ فالتفت النبى ﷺ بوجهه كله إلى أصحابه. ثم قال: «أسمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه؟» فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبى إليها ثم قال: «افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله».

فانصرفت وهى تهلل، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ فَفَرِحْنَ.

يتضح لنا من خلال وقائع هذه القصة الممتازة أن طاعة المرأة لزوجها، وعملها على إرضائه أمر على درجة كبيرة من الأهمية؛ لما لذلك من تقوية أواصر المودة.

فعلى الزوجة أن تكون مرهفة الحس، تعمل على مرضاة زوجها، عن طريق توفير القسط الأكبر له من الراحة، والاستقرار فى البيت، ويكون ذلك بالإصغاء إلى حديثه، فى غير إعراض عنه، أو عدم مبالاة به، فإنها إن فعلت ذلك وداومت عليه بحيث أصبح لها خلقا وسجية، فإنها ستكسب وده وتنال رضاه، وفى ذلك طريقها إلى الجنة مع التزامها بطاعة الله تعالى.

وهذه الزوجة التى أرادت أن تستوضح من رسول الله ﷺ تلك الأمور التى يَفضل فيها الرجال النساء، من حيث تحملهم الكثير من المشاق، وعرضت هذه القضية عرضًا موضوعيًا بأسلوب راق، يدل على فصاحتها، فبين لها رسول الله ﷺ أن المرأة المسلمة تستطيع أن تدرك درجة الرجل الذى يقوم بأداء هذه الأعمال جميعًا إذا ما أطاعت زوجها، وأدخلت على حياته البهجة والسرور، وأبدت من التعاون معه ما من شأنه أن يعينهما على مواصلة رحلة الحياة بسهولة ويسر، كما قد أمرها رسول الله ﷺ أن تفهم هذا، وأن تعمل على إفهامه لمن خلفها من النساء، حتى يكن على علم بذلك، فما كان من هذه المرأة إلا أن انصرفت وهى سعيدة بهذا القول الكريم، فلما أخبرت نساء قومها وعرضت عليهن ما قاله النبى لها وما كان منهن إلا أن فرحن بذلك فرحًا شديداً.

بهذا يتضح لنا حفاظ الشريعة الإسلامية على إشاعة جو التفاهم والود فى محيط الأسرة، مبينة أن الزوجة الصالحة التى تقوم بواجبها على الوجه الأكمل تسدى يداً بيضاء لأفراد أسرتها، وتبرهن على أنها قد استفادت بتوجيهات دينها، وحرصت كل الحرص على أن تضرب المثل والأسوة فى التصرفات المثالية النبيلة، وطالما تمسكت الأسرة المسلمة بهذه الأخلاق فإنها تبرهن للدنيا على أن هذه الأمة هى خير أمة أخرجت للناس، وأن هذه التعاليم وتلكم المبادئ هى التى تصلح لبناء الأمم، وتعمل على تقدم البشرية تقدمًا يفيد البشرية كلها من خلال تلك اللمسات الحانية، والتصرفات الكريمة.

وعليه فإننا نرجو الله تعالى أن يوفق الجميع للأخذ بهذه الأسباب والتحلى بهذه المكارم، حتى تستعيد الأمة والدنيا وجهها المشرق المنير.

* * *

# الإيثــــار

يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩].

إن الدين الإسلامى الحنيف، الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها، وصبغته التى اصطبغت النفوس بها، قد أحدث فى نفوس البشر متغيرات جذرية، وما يزال إلى الحد الذى يمكننا معه أن نقول: إن هذا الدين قد أحدث فى النفوس والقلوب إعادة لصياغتها، فَنَصَعَ لباسها، يوم أن نفضت عنها ركام الجاهلية، وأزاحت عن كواهلها قذاها وأذاها، فلو حاولت المقارنة لشخص واحد خلال عهدين، لأبصرت الفارق واضحًا لذلك الشخص بين عهديه من الكفر والإيمان، حتى ليخيل لك أنهما شخصان لا شخص واحد، وما حدثت هذه النقلة الهائلة إلا بفضل استضاءة القلوب والنفوس بنور مولاها وخالقها، وشغفها بالمكارم والفضائل التى تضفى عليها سَمت الصلاح والوفاء.

وإذا كان تاريخ العرب حافلاً بأخبار الكرم والكرماء قبل ظهور الإسلام، مما يعد مضرب الأمثال، فإننا لو أمعنا النظر فى هذه السجية لوجدنا أنها كانت تشوبها شوائب الأنانية، فهذه المجتمعات لم تكن لتفكر فى شىء إلا فى المصالح الذاتية، والتصرفات الأنانية، فقد أصبح الكرم عندهم وسيلة للتفاخر، وكسب الشهرة، بالرغم مما يحوطه من إغاثة اللهفان، وسدِّ رمق الجوعان؛ فالفضائل الإنسانية إذا لم تصادف عقيدة صحيحة توجهها وتقدمها وتحوطها بالرعاية والعناية، ذهبت بها الأهواء والأغراض كل مذهب.

ولقد كان الدرس الأول الذى لقنه النبى ﷺ لمجتمع المدينة المنورة، والذى يضم الأنصار والمهاجرين، كان الدرس هو درس الكرم والإيثار، أى أن الإسلام قد وجه الكرم وجهته الصحيحة، وزاد عليه شيئًا آخر لم يكن معلومًا من قبل، ألا وهو أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، وهكذا يحاصر الإسلام البخل بتوسيع دائرة الكرم

والإيثار، ويخلص ذلك كله من آثار الجاهلية ليكون فى سبيل الله وابتغاء مرضاته، والآية التى جعلناها عنوانًا لموضوعنا هنا قد أنزلت فى مدح الأنصار وموقفهم البطولى من إخوانهم المهاجرين، حتى إنهم قالوا: يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض (أرض المدينة) نصفين، قال: «لا، قالت الأنصار للنبى ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال: لا، قالوا: تكفوننا المئونة ونشرككم فى الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا» (رواه البخارى) فأنزل الله هذه الآية.

كما ورد فى بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال: ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، قالت: والله ما عندى إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، أو علليهم، وتعالَىْ فأطفئ السراج، ونطوى بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وقد أخرج مُسدَّد فى مسنده، وابن المنذر عن أبى المتوكل التاجى أن رجلا من المسلمين فذكر نحوه، وفيه أن الرجل الذى أضاف هو ثابت بن قيس بن شماس.

وقد أخرج الواحدى من طريق محارب بن وثار عن ابن عمر قال: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات، حتى رجعت إلى أولئك (أى الذى أهديت إليهم) فنزلت الآية.

وهكذا ربى رسول الله ﷺ أصحابه وأمته على حب الإيثار فضربوا للناس أروع الأمثلة، وبرهنوا بذلك على حسن ثقتهم فى الله، وحاولوا جاهدين أن يبرهنوا على صدق معتقدهم بالبراهين العملية والحياتية.

فليقس كل واحد منا نفسه على هذه الموازين البطولية، وبخاصة فى أوقات الشدائد فى محاولة جادة لكشف الضر عن البائسين.

# حبُّ الخير للناس

إن المؤمن لا يكون مؤمنا حقًا تامَّ الإيمان إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، هذا هو المؤمن حقًا. فعن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه» (متفق عليه)، إنه ينبغى على الإنسان أن يحب ما أنعم الله به على غيره من الناس، وينبغى ألا يكره ما أنعم الله به على غيره من الناس؛ لأن حب الإنسان ما أنعم الله به على غيره دليل على نقاء القلب والإيمان الكامل بالله والرضا بقضاء الله وقدره، أما إذا كره الإنسان ما أنعم الله به على غيره فيكون خبيث النفس، معترضًا على قضاء الله وقدره، وهذا هو شأن الحاسد الذى يكره ما أنعم الله به على غيره سواء تمنى زوال النعمة أم لم يتمنَّ، وإن كان بعض العلماء يقول: إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، لكن هذا أخبثه وأشدُّه، وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم الله على شخص فهو حسد، والحسد من خصال غير المسلم، فمن حسد فهو متشبه بهم والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

إن اليهود حسدوا النبى ﷺ؛ لأن الله منحه النبوة وهو رجل عربى ليس منهم وحسدوا أتباعه؛ لأنهم آمنوا به وصدَّقوه، والتفوا من حوله يؤازرونه، ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم، واليهود بحسدهم للنبى ﷺ على ما أتاه الله من فضله يكونون قد ضلوا وساروا فى طريق الشيطان؛ لأنهم لو كانوا عقلاء ما فعلوا ذلك إذ إنهم يعلمون علم اليقين أن الله تعالى قد أعطى آل إبراهيم كإسماعيل - وهو جد العرب - وإسحاق ويعقوب وغيرهم أعطاهم التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، وأعطاهم العلم النافع مع العمل به، وأعطاهم سلطانًا واسعًا وبسطة فى الأرض. ومع

ذلك فأنتم أيها اليهود لم تحسدوا هؤلاء على ما أعطاهم الله من كتاب وحكمة، وملك عظيم، فلماذا تحسُدون محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله مع أنه من نسل إبراهيم عليه السلام؟

إن من مفاسد كره ما أنعم الله به على غيره أنه يعرقل الإنسان عن السعى فى الأشياء النافعة؛ لأنه دائمًا يفكر ويكون فى غم، كيف جاء هذا الرجل مال؟ كيف جاءه علم؟ كيف جاءه ولد؟ كيف جاءته زوجة؟ وما أشبه ذلك فنجده دائمًا متحسراً منطويًا على نفسه، ليس له همٌّ إلا تتبع نعم الله على عباده واغتمامه بها. أما المؤمن الطيب القلب هو الذى يفرح إذا أنعم الله على غيره بنعمة، قال تعالى: ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٣٢]، فهذا نهى من الله عن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد وبما يصلح المقسوم له من بسط الرزق أو قبضه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]، فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم الله له علمًا بأن ما قُسِم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، هذا ولا يدخل فى التمنى المنهى عنه ما يسميه العلماء بالغبطة، وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل ما عند غيره من خير دون أن يَنْقُص شىء مما عند ذلك الغير.

وإن قال قائل: ربما يجد الإنسان فى نفسه أنه يحب أن يتقدم على غيره فى الخير، فهل هذا من الحسد؟ فالجواب أن ذلك ليس من الحسد، بل هذا من التنافس فى الخيرات قال تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

* * *

## الثبات عند الشدائد

لقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزالا موصولا بين الأخيار والأشرار، ونزاعًا مستمراً بين الأطهار والفجار؛ وكثيراً ما يُضيق البغاة على المؤمنين ويُنزلون بهم ما يُنْزلون من صنوف الاضطهاد إلا أن الله تعالى قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، إن الآية تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيًا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله تعالى ونصره ومعنى الآية: أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟ !! لا - أيها المؤمنون - إني أنهاكم أن تظنوا هذا الظن، وآمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسي بمن سبقكم من المتقين في الصبر والثبات، فالآية الكريمة بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» (رواه مسلم).

ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر، وثبتوا عند الشدائد في سبيل إعلاء كلمة الله، روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنْصِر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجْعَلُ فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضعُ على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر

حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله أو الذئب على نفسه ولكنكم تستعجلون» (صحيح البخارى - كتاب الإكراه).

إن أعلى درجات الإيمان هو اليقين، واليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شك بوجه من الوجوه فيرى الغائب الذى أخبر الله عنه رسوله وكأنه حاضر بين يديه، وهو أعلى درجات الإيمان. وفى غزوة الأحزاب حينما تألب الكفار على رسول الله ﷺ واجتمعوا على حربه، وتجمع نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم وحاصروا المدينة ليقضوا على النبى ﷺ وحصل فى هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول قال الله تبارك وتعالى فى وصفها ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] فلما رأى المؤمنون الأحزاب، ورأوا هذه الشدة علموا أنه سيعقبها نصر وفرج وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قالوا: سيكون نصر وستفتح ممالك قيصر وكسرى واليمن، وهكذا كان ولله الحمد.

هذا غاية اليقين أن يكون الإنسان عند الشدائد، وعند الكرب ثابتًا مؤمنًا موقنًا. ينبغى على الإنسان أن يخاف ويخشى من زيغ القلب ويسأل الله دائمًا الثبات فإنه ما من قلب من قلوب بنى آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه.

فنسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على طاعته، وأن يرزقنا الاستقامة على دينه والثبات عليه.

* * *

# ذكر الغير فى غيابه بما يَسُرُّه

إن من أدب المؤمن أن يذكر أخاه فى غيابه بكل خير يَسُره ويشرحُ صدره وإن تكلم أحد فى حقه دافع عنه؛ لأن المؤمنين إخوة فى الدين والعقيدة يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان. فالأصل فى العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم فذكرك لأخيك فى غيابه بكل خير يقوى هذه الصلة، أما إذا ذكرت أخاك فى غيابه بما يسوؤه سيؤثر على الصلة التى بينك وبينه وربما انتهت إلى قطيعة لا يرضى الله عنها ولا رسوله من أجل ذلك نهى الله عن الغيبة فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

والغيبة: أن تذكر غيرك فى غيابه بما يسوؤه يقال: اغتاب فلان فلانًا إذا ذكره بسوء وهو غائب، سواء أكان هذا الذكر بصريح اللفظ أم بالكناية أم بالإشارة أم بغير ذلك.

روى أبو داود وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»، (رواه الترمذى وصححه).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا «تعنى قصيرة» فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» (رواه أبو داود).

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم».

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية، ورجمهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما

متطوعين وإلحاحهما عليه فى تطهيرهما، سمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسُه حتى رجم رجم الكلب، ثم سار النبى ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار، فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فلما نلتما من أخيكما آنفًا أشدُّ أكلا منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها» (رواه ابن كثير فى التفسير وقال: إسناده صحيح).

ثم ساق سبحانه تشبيهًا يُنفِّر من الغيبة أكمل تنفير فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أى اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء وهو غائب فإن مثل من يغتاب أخاه المسلم كمثل من يأكل لحمه وهو ميت، ولا شك أن كل عاقل يكره ذلك وينفر منه أشد النفور، فالغيبة من الكبائر والقبائح التى تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين وإيقاد ثمار الكراهية فى الصدور.

قال الألوسى: وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة وتنحصر فى ستة أسباب:

الأول: التظلم إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى من يتوسم فيه إزالة الظلم.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.

الثالث: الاستفتاء: إذ يجوز للمستفتى أن يقول للمفتى: ظلمنى بكذا.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر كتجريح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء بغير علم.

الخامس: المجاهرون بالمعاصى وبارتكاب المنكرات فإنه يجوز ذكرهم بما تجاهروا به.

السادس: التعريف باللقب الذى لا يقصد به الإساءة كالأعمش والأعرج.

* * *

# اجتناب الظن السيئ

إن الإسلام يطهر الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقع فى الإثم، ويدعُه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك، أبيض يُكنُ لإخوانه المودة التى لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التى لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التى لا يعكرها القلق والتوقع، وما أروع الحياة فى مجتمع برىء من الظنون، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

تبدأ الآية بذلك النداء الحبيب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وما دام النهى منصب على أكثر الظن والقاعدة أن بعض الظن إثم فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلاً، لأنه لا يدرى أى ظنونه تكون إثما.

إن قول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يقيم مبدأ فى التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون فى مجتمعه النظيف فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم ولا للتحقيق حولهم والرسول ﷺ يقول: «إذا ظننت فلا تحقق» (أخرجه الطبرانى بإسناده عن حارثة بن النعمان)، ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم وحرياتهم، واعتبارهم أبرياء حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه، ولا يكفى الظن بهم لتعقبهم بغية التحقيق من هذا الظن الذى دار حولهم.

فالمراد بالظن المنهى عنه فى هذه الآية: هو الظن السيىء بأهل الخير والصلاح بدون دليل أو برهان، وحرمة سوء الظن بالناس إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير، وأما أن تظن شراً لتتقيه، ولا يتعدى أثر ذلك إلى الغير فذلك

محمود غير مذموم، وهو محمول على ما ورد من أن الحزم سوء الظن.

فالواجب على المؤمن أن يبتعد ابتعاداً تامًا عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين لأن هذه الظنون السيئة التى لا تستند إلى دليل أو أمارة صحيحة إنما هى مجرد تهم تؤدى إلى تولد الشكوك والمفاسد بين المؤمنين.

والمراد بالبعض فى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، هو البعض المذموم من الظن الذى عبر الله سبحانه عنه قبل ذلك ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ ،أى أن الكثير من الظنون يؤدى إلى الوقوع فى الذنوب والآثام، فالواجب هو الابتعاد عنه.

قال ابن كثير: ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثيراً منه احتياطًا.

عن حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتى: الطيرة والحسد، وسوء الظن، فقال رجل: ما الذى يذهبنهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض» (سنن الدارمى).

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال: كتبت إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت امرءاً مسلمًا شراً وأنت تجولها فى الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه» (تفسير الألوسى ١٥٦/٢٦٠).

* * *

# ستر المسلم

إن للناس حرياتهم وحُرماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور، ولا أن تُمس بحال من الأحوال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، أى خذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تبحثوا عن بواطنهم، أو أسرارهم، أو عوراتهم، أو ما يعيبهم، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله تعالى.

التجسس مأخوذ من الجس، وهو البحث عما خفى من أمور الناس والمراد من التجسس: النهى عن تتبع عورات المسلمين.

إن القرآن يقاوم هذا العمل الدنىء وهو التجسس من الناحية الأخلاقية ليطهر القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين، وكشف سوآتهم، وتمشيًا مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب. هذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية فى نظامه الاجتماعى، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية.

ففى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس.

فالناس على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، لأن للناس حرياتهم وكراماتهم وحرماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال، وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما ظهر منهم من مخالفات وجرائم وليس لأحد أن يظن بالناس الظنون، بل يجب أن يكون الناس آمنين مطمئنين فى بيوتهم وفى أعراضهم وفى شتى شئون حياتهم.

قال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب، قال: أتى ابن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به.

وعن مجاهد: «لا تجسسوا» خذوا بما ظهر لكم ودعوا سِتْر الله.

وروى الإمام أحمد بإسناده عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فتأخذهم فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها» (رواه أبو داود والنسائى من حديث الليث ابن سعيد).

وقال سفيان الثورى عن راشد بن سعد، عن معاوية بن أبى سفيان، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إنك إن تتبَّعْت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها (رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى).

وهكذا حفظ الإسلام للناس حرماتهم، وحرياتهم، وكراماتهم فلا تمس من قريب أو بعيد تحت أى ذريعة أو ستار.

* * *

# الصبر على الأذى

إن الواجب على المؤمن أن يقابل ما يحدث له من أذى الغير بالصبر والاحتساب، وانتظار الفرج، ولا يظنن أن الأمر ينتهى بسرعة، وينتهى بسهولة.

قد يبتلى الله عز وجل المؤمنين بغيرهم يؤذونهم، وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء فليصبر ولينتظر الفرج، ولا يمل ولا يضجر بل يبقى راسيًا كالصخرة والعاقبة للمتقين، والله مع الصابرين، فإذا صبر وثابر وسلك الطرق واستعد لقتال العدو وتوصل إلى المقصود، ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة؛ لأن أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خطا ثابتة منظمة ويحصِّلون مقصودهم، أما السطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثوروا ويستنفروا فإنه قد يفوتهم شيء كثير وربما صدر منهم زلة تُفسد كل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئًا. لكن المؤمن يصبر ويتئد ويعمل بتؤدة ويوطن نفسه ويخطط تخطيطًا منظمًا يقضى به على أعداء الله من المنافقين والكفار، ويفوِّت عليهم الفرص لأنهم يتربصون الدوائر بأهل الخير يريدون أن يثيروهم حتى إن حدث من بعضهم ما يريدونه من اندفاع نحو القتال حينئذ استعْلوا عليهم، وقالوا: هذا الذى نريد وحدث بذلك شر كبير.

ولذلك لما كان المسلمون الأوائل فى مكة ضعفاء أمرهم الله بالصبر ولم يأذن لهم بالقتال مع ما كانوا يعانونه من أذى واضطهاد المشركين وذلك فى نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وأمثال هذه الآيات كثيرة تدل على أن المؤمنين كانوا منهيين عن قتال أعدائهم فى وقت الضعف، وهناك نص صريح بالكف عن القتال وهو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا

أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [ النساء : ٧٧ ] .

ولقد رسخ النبى ﷺ الثبات والصبر فى نفوس أصحابه عندما كان فى مكة، فعن أبى عبيد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدةً له فى ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال ﷺ: « قد كان مَنْ قبلكم يُؤخذُ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجْعَلُ فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجْعل نصفين، ويُمْشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون » (رواه البخارى) .

والحكمة فى الكف عن القتال فى بدء الدعوة هى أن المسلمين كانوا فى مكة قلة، وهم محصورون فيها لا حول لهم ولا طول، ولو وقع بينهم وبين المشركين حرب أو قتال لأبادوهم عن بكرة أبيهم، فشاء الله أن يزدادوا، وأن يكون لهم أنصار وأعوان، وأن يرتكزوا على قاعدة آمنة تحميها الدولة.

فيجب علينا أن نصبر على أذى الكفار وأن نتمسك بعقيدتنا، فأنت أيها المؤمن لا تسكت عن الشر ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج ولا تمل فالدرب طويل، فإن القائمين بصد الناس عن دينهم سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون فاقطع عليهم السبيل وكن أطول منهم نفسًا وأشد مكراً، فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

* * *

## عدم التعميم فى الحكم على الناس

من عدالة الإسلام أنه لا يحكم على الناس بحكم واحد، ولذلك نجد القرآن يذكر كلمة «أكثر» فيقول مثلا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وكذلك فى حكمه على اليهود لا يعمم الحكم عليهم بأنهم كلهم أعداء للرسول ﷺ وللمسلمين، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

إن الحكم على اليهود فى القرآن بنى على الغالب الكثير لا على الجميع، فمنهم ناس اختاروا الإسلام دينا وآمنوا بالله سبحانه ورسوله ﷺ حق الإيمان، فالآية تذكر أن جماعة من أهل الكتاب آمنوا بالرسول ﷺ ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من أحبار اليهود وهما: عبد الله بن سلام، ومخيرق.

وجاء من أخبار السيرة فى إسلام عبد الله بن سلام أنه قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نترقبه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة، فذهب إليه وقال له: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بُهْت - أى يكذبون بالباطل - وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى فإنهم إن علموا بهتونى وعابونى، وأدخلنى الرسول ﷺ فى بعض بيوته فدخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم سألهم أين الحصين بن سلام؟ وكان اسمه هذا قبل الإسلام، فقالوا: سيدُنا وابن سيدنا، وخيرُنا وعالمنا.

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله واقبلوا

ما جاءكم به الرسول ﷺ، والله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه.

فقالوا: كذبت فقلت لرسول الله ﷺ ألم أخبرك أنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور. فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى جميعًا، ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه ويقولون إنه من الأشرار عندنا وهم الذين ذكروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعدلهم، ولكنهم يكفرون بما يعلمون ويكتمون ما عندهم.

وأما الثانى: فهو «مخيرق» فقد كان علما من أعلامهم وحبْراً من أحبارهم، وكان رجلا ذا مال، أعطاه الله تعالى بسْطة فى العلم والمال وكان يعْرف رسول الله ﷺ بصفته فى التوراة، ولم يكن ممن يجعلون الاعتقاد عنصرية بل كان ممن يؤمنون بالحق ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع، ويقول ابن اسحاق فى يوم أحد قال: يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد ﷺ عليكم لحق، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد ودخل فى جنده وعهد إلى من وراءه من أهله فقال: إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله سبحانه وتعالى، فقاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: مخيْرق خير يهود، وقد أسلم فى ساعته الشديدة يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المدينة المنورة ثأرا وانتقاما، فأبى إلا أن يكون مع المؤمنين فاستشهد فى سبيل الله تعالى فكان خيراً فى ذاته وكان خير من فى اليهود.

* * *

# الاحتفاء بالفضيلة

كان ميلاد النبى ﷺ حدثًا عظيمًا، فقد كان مشرق النور ومولد الفضيلة، وبداية تاريخ حافل بالمآثر زافر بالبطولات والأمجاد، فأصبح ذلك اليوم على الدهر وعلى الأيام غرة الأيام، وسيبقى خالداً فى نفوسنا ورمزاً فى جباهنا، فهو مطلعُ شمس التغيير الشامل ومبعثُ الوحدة والعزة والكرامة لأقوام كانوا من قبل فى ضلال مبين، فأىُ نعمة أسمى مقامًا من هذه النعمة التى أنعم الله بها على عباده. فمن حق أمته أن تبتهج فى ذكراه العطرة وحق له أن يحظى بهذا الاهتمام من أمته التى جاء إليها حريصًا على هدايتها ورشادها.

فلم يكن ميلاده العظيم مجرد إعلان لظهور الدين الحق فحسب بل كان حدثًا هائلاً كبيراً له أثره فى الوجود، فقد كانت الدنيا قبله تتخبط فى فساد وانحلال وتعاسة وشقاء لا تليق بالإنسان بل لا تليق بقطيع من الحيوان.

أحجار تعبد وأصنام تقدس وآلهة تعبد من دون الله، وكان العالم حينئذ كسفينة مضطربة، حائرة تتخبط فى بحر لجى تتلاطم أمواجه فى دياجير ليل مبسوط الهول تبحث عن منقذ ماهر يقودها إلى مرفأ الأمان وبر السلام، وظلت هكذا ما شاء الله إلى أن انبثق نور الرسالة الخاتمة بميلاد النبى الأكرم، فاستقبلته الإنسانية المنكودة والبشرية الحائرة كما يستقبل المدلج تباشير الصباح والمصفد نسيم الحرية، فأشرقت الأرض بنور الإيمان الذى أخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة إلى العلم، ومن الغفلة إلى اليقظة، وانتشلها من أوحال الخرافات والأهوال إلى الحياة الفاضلة فى ظل الدين القيم والمنهج المستقيم الذى أزال الغشاوة وبدد الظلام وهدى العقول إلى الصواب.

فلما أراد الله لليل أن ينجلى وللفجر أن يشرق، فتحت مغاليق الغيب، وبزغ فجر الإسلام، وكان على رسولنا الحبيب أن يواجه الكفر مواجهة حاسمة فأعلن كلمة

الحق على الملأ ومن هنا بدأ الصراع وتحدى محمد ﷺ بمفرده أمة بأسرها، تحدى الوثنيات، وتحدى المزاعم الفاسدة والقيم الباطلة والعقائد الضالة بعقيدته الناصعة الخالصة عقيدة التوحيد.

فمن أسلم لله وجهه وملأ بالتوحيد قلبه، وأخضع لله أمره وذاق حلاوة العقيدة الطاهرة عقيدة التوحيد التى دعا إليها رسولنا محمد ﷺ المثل الأعلى للبشر جميعًا والحريص على سعادتهم فى الدنيا والآخرة، كانت له سعادة الدنيا وحسن مقام الآخرة.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أى جاءكم محمد ﷺ وهو من جنسكم ونسبكم وعربى مثلكم، شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه؛ لكونه بعضًا منكم، فهو يخاف عليكم العذاب لأن قلبه الكبير جمع الرأفة والرحمة.

أما عظمة أخلاقه وشمائله فليست فى حاجة إلى إيضاح أو تبيان فأخلاقه قرآنية معروفة للناس المسلمين وغير المسلمين على السواء والمتحدث عن أخلاقه يقف عاجزاً، من أين يبدأ؟ وماذا يقول؟ وعن أى الجوانب يتحدث؟ فقد كان رسولنا الأكرم أحسن الناس خلقًا، واصطفاه ربه واجتباه واختاره من البشر كافة ليشرفه بحمل لواء الرسالة وتبليغها للناس جميعًا وهذا فضل الله، فنبينا هذا المثل الأعلى للإنسانية الراشدة الواعية والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

إذا كانت هذه هى أخلاق المصطفى ﷺ وكأنه مخلوق بها ومفطور عليها، وكأنه صبغها بمشيئته كما قال الشاعر:

خلقت مبرءًا من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاءُ

فأجمل منك لم تر قط عينى ... وأفضل منك لم تلد النساءُ

فما أجمل من أن نتخلق بأخلاق النبى ونحن فى ذكراه العطرة.

* * *

# التحلى بأخلاق النبى

يقول تبارك وتعالى فى نبينا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فرسول الله ﷺ مجمع صفات الكمال من رب العزة والجلال، حباه الله بها جميعًا يوم كتب عليه نعمة الاصطفاء واجتباه خاتمًا للأنبياء والمرسلين وجعل موقعه فى الأمة الأمية التى أرادها الله خيرَ أمة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

روى القاضى عياض بسنده عن ابن أبى عصر العدنى فى مسنده عن على بن أبى طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: «نسبًا وصهرًا وحسبًا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح أو كلها نكاح».

كما روى ابن سعد والبزار وأبو نعيم فى الدلائل بسندهم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيًا».

وروى مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم» صلى الله عليك وسلم يا رسول الله، هكذا أثبتك الله جل جلاله فى الأرحام الطاهرة حتى ولدت فى بنى عبد المطلب بن هاشم، كما قال فى خطابه لك: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

عينه كانت ترعاك متقلبًا فى أصلاب وأرحام طاهرة إلى أن نبأك بالحق واختارك على العالمين.

وعصمك ربك مما كان عليه قومك من جور وحيفٍ وجهل بين الأوثان وأعراف الجاهلية، وأكد ذلك فيما أنزله عليك ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكنت الرحمة المهداة والنعمة المزجاة.

روى أبو هريرة فيما أخرجه البيهقى فى الدلائل إذ يقول ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة». وأى هداية تلك التى سعدت بها البشرية إذ أخرجتنا ومن سبقنا ومن يلحقنا من الظلمات إلى النور وصدقك ربك فيما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولدت يتيمًا ودرجت تنتقل من كفيل إلى كفيل يحرسك ربك ولقد امتن ربك على أمتك بما أكرمهم من رسالتك فيهم ولست من خيرهم، وإنما أنت من أوسط أنسابهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصفك ربك بذروة المحامد وكمال الخلال من خوفك علينا وحرصك على هدايتنا لا تريد لنا المعاناة والعنت بل تفضل ربنا وربك فأسبغ عليك من خاص صفاته جل جلاله فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو الذى قال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها:

«ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال.. لبيك..».

فحريٌّ بنا قوم لا إله إلا الله محمد رسول الله أن نتحلى بأخلاق الرسول الكريم الذى اصطفاه ربه وارتضاه لنا نبيًا ورسولاً، كان القرآن خلقه وكان التوحيد عنوان رسالته.

* * *

# محبة الرسول ﷺ

محبة النبى ﷺ فرض لازم على كل مسلم ومسلمة وقد ألزمنا الله بها، وجعلها مُقدمة على حب النفس والمال والولد، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فلقد أخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده والناس أجمعين».

والمراد بالحب هنا: الذى يقدم على كل شىء فى حياة المسلم، ليس هو الحب الطبيعى التابع لهوى النفس فإن محبة الإنسان لنفسه من حيث الطبع أشد من محبة غيره ومحبته لولده ووالده أشد من محبة غيرهما، وهذا الحب الفطرى لا يستطيع الإنسان دفعه ولا يؤاخذ عليه، وإنما الحب لله ولرسوله، والذى يقدم على كل شىء هو ذلك الحب العقلى وقد أوضحه الإمام نور الدين على القارى فى شرحه على الشفا بقوله: .. هو إيثار ما يقضى العقل رجحانه وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى إلى المريض يكره الدواء المرَّ بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهون تناوله بمقتضى عقله لما علم أو ظن إن إصلاحه فيه.

وكذلك المؤمن إذا علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته وعقباه وتيقن أنه ﷺ أشفق الناس عليه وألطفهم إليه حينئذ يرجع أمره بمقتضى عقله على أمر غيره وهذا أول درجات الإيمان.

ويسترقى الإنسان فى ذلك حتى يصير طبعه تابعًا لعقله فى حب النبى ﷺ فيعمل على نصر سنته والذب عن شريعته والاقتداء بهديه يفعل ذلك عن حب ورغبة حتى يصير هواه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ فيمتلئ القلب بمحبته وتتشوق النفس

إلى الاقتداء به وهذا المفهوم للحب النبوى يفسر لنا ما جاء عن عمر بن الخطاب فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن زهرة بن معبد عن جده قال:

«كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: «والله أنت يا رسول الله أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى»، فقال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه».

فقال عمر: فلأنت الآن أحب إلى من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: الآن يا عمر (رواه أحمد).

وحب النبى ﷺ له حلاوة يتذوقها القلب المؤمن فيشعر بالرضا والسكينة وتغمره البهجة والسعادة فى سائر أحواله وقد جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

* * *

فى شهر ربيع الأول كان ميلاد النبى ﷺ وكانت هجرته وكانت وفاته.

وتعد هذه الأحداث ذات قيمة عظيمة ليس فى حياة المسلمين وحدهم، ولكن فى سيرة التاريخ البشرى كله، وأعظم ما قدمته لنا هذه الأحداث هى صورة الإنسان الكامل فى ذروة مثاليته التى فاقت تطلعات البشر.

فلم تجتمع قبل سيدنا محمد ﷺ ما اجتمع له من صفات وسجايا من الكمال الإنسانى.

كان سيدنا محمد ﷺ قائداً عسكريًا فذاً ومخططًا حربيًا ومقاتلاً شجاعًا وسياسيًا خبيراً، كما كان رسولا وداعية هاديًا وسراجًا منيراً ومربيًا ومعلمًا كريمًا وعليمًا وعابداً متهجداً وخطيبًا بليغًا فصيحًا، وزوجًا محبًا رحيمًا.

وقد بلغ الذروة السامقة فى كل هذه الجوانب فاكتملت فيه ولم تكتمل لأحد من بعده أو قبله جملة واحدة، بل إن كل صفة وسجية منها لو توافرت لامرئ كما كانت لسيدنا محمد ﷺ لكان آية من آيات الدهر.

إننا لن نجد نموذجًا أسمى من سيدنا محمد ﷺ قدوة للناس كافة فى كل جوانب الحياة الإنسانية ومقياسًا للخلق والأدب والرحمة والبصيرة والتضحية للمبادئ السامية.

إن النموذج المحمدى سيظل متجدد العطاء للطامحين إلى مكارم الأخلاق وسنام الأدب العالى والفضل الرفيع سواء للمسلم أو غير المسلم، فالنموذج المحمدى هو صناعة إلهية كما كان موسى عليه السلام الذى قال الله له: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]، وكما كان غيره من الأنبياء الذين قال الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ عنهم: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولقد كان من نعم الله تعالى أن يقدم للبشرية النموذج الإنسانى الذى يرتضيه فكان سيدنا محمد ﷺ الذى قال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (السنن الكبرى للبيهقى).. بعد أن حدد المؤدب فقال فيما روى عنه ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» (كشف الخفاء للعجلونى).

وفرض الحق سبحانه على كل مسلم أن يستفرغ وسعه لتتبع مواضع القدوة فى حياة النبى الكريم فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

وبعض الناس يخطئ فيظن أن اتباع القرآن يكفى كى يكون مسلمًا يحظى برضا الله ويهمل السنة الشريفة أو يراها غير ملزمة له ويقول ﷺ: «بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا حللناه وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه» (رواه الترمذى).

ولن يكون المسلم مسلمًا صحيح الإسلام حتى يعتقد أن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله، والمسلم الحق يرى السيرة هداية لكل البشر لا مجرد تاريخ.

وعلينا نحن المسلمين أن نتأسى بقول رسول الله ﷺ: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا؛ كتاب الله وسنتى». صدق رسول الله ﷺ.

* * *

# التوكل والنهى عن التواكل

يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن التوكل على الله تعالى خلق إسلامى أصيل، أرشد إليه ربنا تبارك وتعالى فى كتابه الكريم، وحث عليه وتخلق به رسول الله ﷺ وبحسبنا فى هذا الحديث أن نقف سويًا على معنى التوكل، وما أعده الله للمتوكلين، وإلى أى مدى يتوقف تقدم عجلة الحياة على التوكل، كما نشير إشارة وجيزة إلى التواكل الذى هو ضد التوكل ونقيضه، فبضدها تتميز الأشياء.

فالتوكل كما يقول العارفون بالله، والعالمون بهداياته: هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى فى استجلاب الخيرات، ودفع المضرات من أمور الدنيا والآخرة، مع الأخذ بالأسباب الموصلة لتحقيق ذلك عمليًا، أما التواكل فهو العجز والكسل والقعود عن طلب الأشياء باتخاذ أسبابها التى ربطها الله بها.

فما على الإنسان إذا عقد العزم على المضى فى أمر من الأمور، أو شأن من الشئون، ما عليه إلا أن يعد للأمر عدته، باتخاذ الأسباب الملائمة مع التوكل على بارئ الأرض والسماء الذى عليه وحده يتوكل المتوكلون، وبه يستعين المؤمنون المتقون، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ومن الأمور التى ينبغى ألا تغيب عن أذهان العقلاء، أن التوكل على الله مصدر من مصادر القوة، ففى الحديث الشريف: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله» (إتحاف السادة المتقين للزبيدى)، ويقول أحد الصالحين: حسبك من التوسل إليه، أن يعلم من قلبك حسن التوكل عليه.

يقول رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما أحلَّ، ودعوا ما

حرَّم» (سنن ابن ماجة)، ويقول أحد الحكماء: ابذر الحب، وارج التمر من الرب، كما أرشد النبى ﷺ ذلك السائل الذى جاء على ناقته فوقف أمام باب مسجد النبى، وقال: يا رسول الله أأترك ناقتى وأتوكل؟ أم أعقلها وأتوكل؟ فقال له النبى الكريم: «اعقلها وتوكل» (جمع الجوامع للسيوطى) أى اعقلها أخذاً بالأسباب، ثم توكل على الله مفوضًا له أمرك وأمرها، فهو المتصرف فى كل شىء، وهو المؤمل لكل خير.

ولقد ورد أن إبراهيم بن أدهم أحد زهاد المسلمين كان له صديق تاجر يدعى "شفيق البلخى"، وذات يوم ودع شفيق صديقه ابن أدهم لسفر فى تجارة له، فودعه صديقه ودعى له بخير، ولكن بعد فترة قصيرة وجد إبراهيم صديقه شفيقًا فى المسجد، فسأله عن حاله، فأخبره بأنه عاد ولم يكمل السفر ولا التجارة، فسأله عن سبب ذلك، فأخبره بأنه رأى فى طريق سفره طائراً كسيحًا فى مكان مهجور، ورأى طائراً آخر صحيحًا يأتيه بالطعام والشراب، فقال فى نفسه: إذا كان الله قد ضمن لهذا الطائر الكسيح رزقه على هذا النحو، فلماذا أعمل وأجهد نفسى؟! إننى سأرجع ولن يحرمنى الله من الرزق كما رزق هذا الطائر الضعيف، فنظر إليه إبراهيم بن أدهم وقال له: لماذا ترضى لنفسك يا أخى أن تكون الطائر الكسيح الذى يعوله غيره، ولماذا لا تكون الطائر الصحيح الذى يعول غيره، فتنبه شفيق، وقال لإبراهيم: جزاك الله عنى خيراً يا أخى، لقد غاب عن ذهنى هذا الأمر، ثم إنه قام يواصل رحلته وعمله فى الحياة.

هكذا يكون فهم الأمور على وجهها الصحيح، وأنه على العاقل البصير أن يكون مقبلا على شأنه، حافظًا للسانه، يسعى فى مناكب الأرض بجد وإخلاص، لكى يحصل من الأرزاق ما يحفظ عليه حياته، ويدفع به غائلة الحاجة والفاقة عمن يعول، فذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون.

فالتوكل على الله فى السعى الدائم خير من الكسل والعجز والخمول، وكما يقول الرسول الكريم: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» (رواه أحمد).

* * *

# العز الذى لا ذل بعده

إننا بحاجة ماسة إلى التعرف الحقيقى على كل ما من شأنه أن يصلح نفوسنا التى بين جنوبنا، ولا شىء أنفع فى تحقيق هذا الهدف، وذلك الغرض من الارتباط الكامل بالله رب العالمين، والتوجه إليه وحده فى كل حال، وعلى أى حال، وفى الحديث السابق ما يدل على أن الله سبحانه وتعالى يحثنا على ذلك، (عبدى اطلبنى تجدنى)، ولكن كيف نطلب الله تعالى؟

نطلبه بطاعته، والبعد عن معصيته، وبكثرة ذكره وشكره والثناء الحسن عليه، فمن تحقق له ذلك، فقد تحقق له كل شىء، تحقق له كل شىء فى دينه، تحقق له كل شىء فى دنياه، ومن أخفق فى تحقيق هذا الغرض، فقد فاته كل شىء، وما أصدق ما يقول القائل فى مناجاة مولاه: إلهى، ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا، وخسر من بغى عنك حولا.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «فى القلب شعث لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى يوم القيامة، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدقُ الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقة أبداً.

إنه منهج تربوى ممتاز، من تمسك به فاز وسعد، ومن أعرض عنه خاب وخسر، فما أسعد الإنسان حين يلقى بنفسه، وبكل مطالبه، وبكل أحواله ومشاغله، حينما يلقى بذلك كله على أعتاب رب الأرباب، ومهيئ الأسباب، مسلما له فى كل شىء متوكلا عليه وحده فى كل أمر، ضارعًا إليه فى كل أمر مهم، فما يكون من الرب الكريم إلا أن يقبل عليه، فيزيل عنه كل وحشة وهم وغم، ويكون أقرب إليه بالفضل

والنصر والتوفيق، فيجبر كسره، ويقيل عثاره، ويثبته بالقول الثابت، ويدفع عنه كيد الكائدين، ومكر الماكرين، فيدخل دائرة العز الذى لا ذل بعده، والغنى الذى لا فقر بعده، والستر الذى لا عرى بعده، فيصدق عليه قول الرسول الكريم: «العز فى طاعة الله».

فيا كل المتعبين، ويا كل المكدورين، ويا كل من تلهبهم سياط الدنيا، وتستعبدهم مادياتها، ألم يأن لكم أن تراجعوا حساباتكم، وتفيئوا إلى واحة الأمان، بظلها الوارف، وعطرها الفواح، وخيرها الكثير الوافر!!

ألم يأن لكم أن تجددوا إيمانكم، وأن يزن كل منا نفسه بموازين الحق، بموازين الأخلاق الإسلامية الصحيحة، وأن يعلم كل منا أن الدنيا ساعة، فيستغلها فى الطاعة، وكما يقول القائل: الدينا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طماعة فعلِّمها القناعة؟!!

ألا أدلك على أبواب الخير، التى إن ولجتها أوصلتك إلى رضوان الله؟!!

أخرج ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح والتحميد والتكبير، والتهليل، والأمر بالمودة والنهى عن المنكر، وتُسمع الأصم، وتهدى الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان والمستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك».

ويقول فيما أخرجه الطبرانى: «إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس، يفزع إليهم الناس فى حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله».

فاللهم وفقنا لما تحبه وترضاه واجعلنا هادين مهتدين.

* * *

# التفقه فى الدين

عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «مَنْ يُرد الله به خيرًا يُفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى؛ ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضُرهم مَنْ خالفهم حتى يأتى أمر الله» (رواه البخارى).

من الأخلاق الإسلامية الأصيلة، التى دعى إليها الإسلام الحنيف موضوع التفقه فى الدين، والتفقه فى الدين يعنى فَهْم أصوله وفروعه والعلم بها من خلال النصوص الشرعية الدالة عليها، وقد توفر لهذه المسائل جمع غفير من علماء اللغة الذين تركوا تراثًا فقهيًا عظيمًا، فى شتى مجالات الحياة؛ ذلك لأن رسول الله ﷺ ما فارق الدنيا حتى ترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ويتسع هذا المعنى ليشمل العلم والفهم الدقيق لكل أمر من الأمور، ولكل علم من العلوم، فكل عالم بشىء فهو فقيه، ولقد دعا النبى ﷺ لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل» (رواه البخارى)، ويقول الله تعالى دعاء كليمه موسى عليه السلام حينما أرسله إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

كما يراد بالفقه أيضًا معانى الإيمان، وتحقيقه فى نفس العبد، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لم يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولم يُؤَمِّنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من رَوح الله، ولم يَدَع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه» (إتحاف السادة المتقين للزبيدى).

ولقد كان اسم الفقه فى الصدر الأول يطلق ويراد به علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلوب، ويدل على ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، كما نعى الله على الكفار قسوة قلوبهم فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد بين الرسول ﷺ أن فقه الدين والعمل به هو أقصى ما يطمح إليه العبد المؤمن، فذلك هو الكيْس كل الكيْس، ففى الحديث الشريف: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» (رواه أحمد)، أى أن الكيس من حاسب نفسه وأخضعها للعمل الصالح الطيب الذى يحقق لها النجاة يوم العرض على جبار السماوات والأرض.

وقد بين النبى ﷺ أيضًا أن فقه الدين وفهم مسائله وقضاياه إنما هو بمثابة العطاء من الله تعالى، فقد بين الرسول ﷺ شريعة ربه بأتم بيان، ولم يخص بعض الناس منها بشىء معين، ولكن الله هو الذى يعطى كل واحد من الاستعداد ما به الفهم، ويمنح من المواهب ما به الإدراك، فيلهم كلا ما يليق باستعداده، ويتلاءم مع قدراته الذهنية، ويقول رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (رواه البخارى).

وكأننا برسول الله ﷺ وهو يحثنا على فقه الدين والعمل بمقتضاه، من خلال بيانه تلك الحقيقة الناصعة البياض، ألا وهى أن طوق نجاة هذه الأمة هو الالتزام بمقررات الشرع الحنيف، والعمل الجاد على ابتغاء مرضاة الله، وأنها ما تزال منصورة على أعدائها طالما ألزمت نفسها منهج الاستقامة، وأخذ الأمور مأخذ الجد، وهذا معنى طيب يجب العمل على تعظيمه فى النفوس، وتعظيم العمل به.

ومما يقوى هذا المعنى، ما طلبه سيدنا معاوية بن أبى سفيان من السيدة عائشة رضى الله عنها فقد قال لها: أوصينى ولا تكثرى على، فقالت له: سمعت من رسول الله ﷺ أنه قال: «من التمس رضا الله، بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس» (رواه الترمذى).

* * *

# بـر الوالديـن

يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

هذا البيان القرآنى الكريم يوضح لنا هذا الإرشاد الإلهى الحكيم، فإذا كان المولى عز وجل هو المقصود بالعبادة الخالصة، فإن الوالدين هما أحق بالإحسان، وهما أولى الناس بالبر وحسن الصحبة، وما ذلك إلا لما لهما من كبير الفضل بعد الله تعالى فى الإحسان إلى الأبناء، كداً وكدحًا فى سبيل إسعادهم، فكل منهما يتفانى فى توفير الخير الذى يقدمه لكل منهم، حتى ينال كل واحد منهم حظًا سعيداً فى الحياة، ويحيا حياة طيبة، فيفرحان لفرحه، ويتألمان لألمه، ولقد تعددت النصوص القرآنية التى تحض على البر بالوالدين والإحسان إليهما، من نحو قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، ويتمثل ذلك فى طاعتهما فى غير معصية، والقيام لهما بالسمع والطاعة، وتوقيرهما، والإحسان إليهما، فى كل حال وعلى أى حال، وبخاصة حال الكبر، وإذا نزل بهما أو بأحدهما من حالات الضعف ما يستوجب العون والمساعدة، فقد قال النبى ﷺ فى حديثه الشريف: «أنت ومالك لأبيك» (رواه أبو داود).

ولقد بينت الشريعة الغراء أن الإحسان إلى الوالدين وحسن عشرتهما يعدل الجهاد فى سبيل الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يبايعه على الهجرة والجهاد، فلما علم النبى ﷺ أن لهذا الرجل والدين على قيد الحياة، ما كان منه إلا أن أمره بالرجوع إلى والديه، وحسن معاشرتهما، حيث قال له: «فيهما فجاهد» (رواه البخارى).

ولما كانت الأم قد تحملت من المشاق الشىء الكثير، من نحو آلام الحمل، وطلقات الوضع، وما يتلو ذلك من الرضاع وحسن التربية، والقيام بالواجب حال الصغر، والاهتمام بأمر وليدها فى كل طور من أطوار حياته، فقد سعدت به رضيعًا،

وأنست به شابًا، ولم تتحمل أى أذى يلحقه، فإذا ألم به مكروه لم يهدأ لها جفن ولم ينقطع لها دمع، وباتت ليلها فى هلع ووله، تضرع إلى الله، وتتوسل إليه أن يستجيب دعاءها، وينجي برحمته وليدها.

من أجل هذا وغيره فقد اختصها رسول الله ﷺ بمزيد الاهتمام، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك» (البخارى ومسلم).

فنحن نرى من هذا الحديث أن النبى ﷺ قد أوصى بالأم ثلاث مرات، وأوصى بالأب مرة واحدة، وليس فى هذا تقليل لشأن الأب، ولا افتيات على حقه فى تربية أولاده، وإنما فيه مراعاة الجانب الأضعف فى هذه العلاقة، يقول الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤].

وعلى الجملة فإنه يجب على الإنسان أن يلتزم بمنهج القرآن فى حسن صحبة الوالدين، وهو ما ورد فى قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وليعلم كل إنسان أنه كما يدين يدان، والجزاء عند الله من جنس العمل، وأن الله يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وأن الإسلام بإرساء هذه المبادئ، وبيان هذه المعالم، إنما يرسم حدود الحياة، الحرة الكريمة، التى يتضح فيها تواصل عطاء الخير بين الأجيال، فأبناء اليوم هم آباء المستقبل، فليختر كل امرئ المكيال الذى يجب أن يكال له به، وصدق الله إذ يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فوفقنا اللهم لما تحبه من العمل وترضاه، إنك رب ذلك والقادر عليه.

* * *

# مجاهـدة النفـس

قبل أن يحمل المسلم السلاح لقتال أعداء الله وأعداء المسلمين عليه أن يجاهد أولاً نفسه التى بين جنبيه، عليه أن يكون فى جهاد دائم مع نوازع الهوى، ودوافع الإثم حتى يقوى على مقاومة قوى الشر فى الحياة، ومن يقدرُ على الاستعلاء على هواه كان أقدر على الانتصار على الأعداء، والإنسان فى صراع شاق بين دوافع الروح التى تدعو إلى الخير، وبين وساوس الشيطان الموجهة إلى الشرور، روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن للشيطان لمَّة بابن آدم، وللمَلك لمَّة فأما لمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئًا فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]» (رواه الترمذى).

وإذا انتصر الإنسان فى جهاده مع نفسه استرخص الحياة وقدمها فداء لعقيدته، وعاش حياته عزيزا حراً يهابه الأعداء، ويحترمه الأصدقاء والمسلمون الأولون رضوان الله عليهم أجمعين، صانوا عقيدتهم، ونشروا مبادئهم، وحفظوا مقدساتهم بقوة إيمانهم، وبجهاد أعدائهم امتثالا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ولقد ذم رسول الله الذين يتعلقون بزينة الحياة الدنيا، ويقعدون عن شرف الجهاد فقد روى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، وعبدُ القطيفة، إن أُعطى رَضى، وإن لم يُعْط سخِط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، أشعث رأسُه، مغبَرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة وإن كان فى الساقة كان

فى الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفع له» (رواه البخارى).

وجهاد النفس يكون بمخالفتها وعدم اتباعها لما تهواه، وقد ذم الله اليهود على اتباعهم لأهوائهم. قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فعلى المسلم أن يجاهد نفسه وليعلم أنها أعدى أعدائه، وأنها بطبعها ميالة إلى الشر، فرارة من الخير أمارة بالسوء قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، تحب الدعة والخلود إلى الراحة، وترغب فى البطالة، وتنحرف مع الهوى، تستهويها الشهوات العاجلة، وإن كان فيها حتفُها وشقاؤها فعلى المسلم أن يخالفها، ويصمم على مكافحة رعوناتها، ومناجزة شهواتها، فإذا أحبت الراحة أتعبها، وإذا رغبت فى الشهوة حرمها، وإذا قصرت فى طاعة أو خير عاقبها ولامها، ثم ألزمها بفعل ما قصَّرتْ فيه، وبقضاء ما فوتته أو تركته بأخذها بهذا التأديب حتى تطمئن وتطهر وتطيب وتلك غاية المجاهدة للنفس، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمسلم إذ يجاهد نفسه فى ذات الله لتطيب وتطهر وتزكو وتطمئن، وتصبح أهلا لكرامة الله تعالى ورضاه يعلم أن هذا هو درب الصالحين وسبيل المؤمنين الصادقين فيسلكه مقتديا بهم ويسير معهم مقتفيا آثارهم فرسول الله ﷺ قام حتى تفطرت قدماه الشريفتان وسئل ﷺ فى ذلك فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورا» (رواه البخارى)، وكان على رضي الله عنه يقول: رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى، وما هم مرضى، وذلك من آثار مجاهدة النفس، والرسول ﷺ يقول: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» (إتحاف السادة المتقين للزبيدى).

* * *

# الصبر على طاعة الله

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الصبرُ على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحبُّ إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة أبغضُ إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية . أ. هـ . (مدارج السالكين ٢/١٥٧).

لقد أمر الله سبحانه بالصبر على طاعته، وذلك في قوله جل شأنه خطابًا لرسوله ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر «اصطبِرْ» مكان الصيغة المعتادة «اصْبِرْ»؛ لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، فزيادة المبنى تدل في العادة على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها. إن الصبر على الطاعة صبر على الشدائد، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

**الحالة الأولى**: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء، ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك يحتاج إلى الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس، وقد نبه صلوات الله وسلامه عليه إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (رواه البخاري). وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، يعني لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده مخلصين له الطاعة.

**الحالة الثانية**: حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل

عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضًا من شدائد الصبر، قال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، أى صبروا إلى تمام العمل.

**الحالة الثالثة:** بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يبطل عمله، ويُحْبِطُ أثره كما قال تعالى: ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]، وكما قال تعالى: ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهم جميعًا، وقد جمعها الله تعالى فى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال القرطبى: اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان، فقال ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض.

وقيل العدل: الفرض، والإحسان: النافلة. وقال على بن أبى طالب: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل (أ. هـ /١٦٦).

ولا شك أن كل ما ذكر يحتاج إلى صبر، ولقد صبر إسماعيل عليه السلام على طاعة ربه حينما قال لأبيه إبراهيم عليهما السلام حين أخبره أنه رأى فى المنام أنه يذبحه: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

* * *

# المسارعة إلى الزواج

لقد شرع الله الزواج لحكم سامية، وغايات نبيلة وفوائد جليلة، وأمر بتيسير أسبابه؛ لأنه هو الطريق السليم للتناسل، وعمران الأرض بالذرية الصالحة، ولم يشأ الله تبارك وتعالى أن يترك الإنسان كغيره من المخلوقات، فيدع غرائزه تنطلق دون وعى ويترك الاتصال بين الذكر والأنثى فوضى لا ضابط له كما هو الحال عند الحيوان، بل وضع النظام الملائم الذى يحفظ للإنسان كرامته، ويصون له شرفه فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالا نظيفًا طاهراً قائمًا على أساس التراضى والتفاهم، وبهذا وضع للغريزة طريقها المأمون وحمى النسل من الضياع، وصان المرأة أن تكون دُمْيَة بين أيدى العابثين أو كلأ مباحًا لكل راتع.

**الترغيب فى الزواج:**

لقد رغَّب الإسلام فى الزواج بصور متعددة للترغيب، فتارة يذكر أنه من سنن الأنبياء، وهدْى المرسلين وأنهم القادة الذين يجب علينا أن نقتدى بهداهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وتارة يذكره فى معرض الامتنان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]، وأحيانًا يتحدث عن كونه آية من آيات الله قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقد يتردد المرء فى قبول الزواج فيحجُم عنه خوفًا من الاضطلاع بتكاليفه، وهروبًا من احتمال أعبائه فيلفت الإسلام نظره إلى أن الله سيجعل الزواج سبيلا إلى الغنى، وأنه سيحمل عنه هذه الأعباء ويمده بالقوة التى تجعله قادرا على التغلب على أسباب الفقر، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وفى حديث الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف».

إن المرأة خير كنز يضاف إلى رصيد الرجل، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة».

وقد يُخيل للإنسان فى لحظة من لحظات يقظته الروحية أن يتبتَّل وينقطع عن كل شأن من شئون الدنيا فيقوم الليل ويصوم النهار ويعتزل النساء ويسير فى طريق الرهبانية المنافية لطبيعة الإنسان فيعلمه الإسلام أن ذلك منافٍ لفطرته ومغايرٌ لدينه، وأن سيد الأنبياء - وهو أخشى الناس لله وأتقاهم له - كان يصوم ويُفْطِر ويقوم وينام ويتزوج النساء، وأن من حاول الخروج عن هديه فليس له شرف الانتساب إليه، روى البخارى ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهْطٍ إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

* * *

## نصــرة المظلــوم

إن عقاب الظالمين فى الدنيا تربية عاجلة للوقوف أمام استشراء شهوة الظلم عند الظالمين؛ لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحْتَرِفًا للظلم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، أى قبل الآخرة لهم عذاب، ولذلك حين يرى الناسُ مصرع الظالم، أو يرون الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة، فهؤلاء الظالمون لهم عذاب أقرب من عذاب الآخرة؛ لأنه لو أجلت المسألة كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة.

ونصرة المظلوم تتحقق بأن ينزل كل ممكن فى الأرض العقاب بكل من يعربد فى الكون لتستقيم الأمور، ولقد أقام ذو القرنين العدل بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

إن إنزال العقاب بالمعتدى خضوع لمنهج الله وشفاء للمعتدى عليه ونصرة له، وفى رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدى ينال عقابا، ولذلك شرع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وحينما يأخذ الناس الظالم بالعقوبة فهم يتعبونه، لكنهم يريحون كل المظلومين وينصرونهم، وهذه هى العدالة فعلا، ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى، فقد تحدث الجريمة اليوم ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع

العقوبة يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

إن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمُّهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى فى ظلمه وطغيانه، ويُعَرْبد فى الآخرين، فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله. ولذلك نجد أن أبا بكر رضي الله عنه يبين لنا ذلك فيقول: «أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله - عز وجل - أن يعُمَّهم بعقابه» (أخرجه أحمد وابن ماجة).، ويقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى: «وعزتى وجلالى لأنتقِمَنَّ من الظالم فى عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره»(أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٠٦٥٢).

إن ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم، أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعًا، ولا نصرة للمظلوم، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعًا» (أخرجه أحمد والبخارى).

إن المظلوم الذى يكون فى مُكْنَته أن يرد الظالم وسكت عن ذلك استحق أن يشمله العقاب الذى يقع على الظالم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين ونصرة المظلومين أنزل الله بها العقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

* * *

# ترك المرء ما لا يعنيه

إن من حسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنيه من قول وفعل والاقتصار على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، وأن تتعلق عنايتُه بما يعنيه ويكونَ من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء، يقال عناه يَعْنيه إذا اهتم به وطلبه، عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنيه» (حديث حسن، رواه الترمذى)، هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، فإن جماع آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث: قول النبى ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» (رواه البخارى)، وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله ﷺ للذى اختصر له فى الوصية «لا تغضب» (رواه البخارى)، وقوله ﷺ: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (إتحاف السادة المتقين للزبيدى)، ومعنى قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» يعنى أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه من قول وفعل، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال ومعنى (يعنيه) أن تتعلق عنايته به ويكون من مقصده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء يقال: عناه يعنيه إذا اهتم به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له به ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس بل بحكم الشرع والإسلام. ولهذا جعله الرسول ﷺ من حسن الإسلام، فإذا حَسُن إسلامُ المرء ترك ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال فإن الإسلام يقتضى فِعْلَ الواجبات وإن الإسلام الكامل الممدوح يدخل فيه ترك المحرمات، كما قال النبى ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (رواه البخارى)، وإذا حسُن الإسلام اقتضى ترْك ما لا يعنيه من المحرمات أو المنهيات والمكروهات، وفضول المباحات التى لا يحتاج إليها فإن هذا كله لا يعنى المسلم إذا كَمُل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.

فَمَنْ عَبَد الله على استحضار قرْبه ومشاهدته بقلبه، أو على استحضار قرب الله منه وإطلاعه عليه، فقد حسُن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه فى الإسلام ويشتغل بما يعنيه فيه فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يُسْتحيا منه كما وصى ﷺ رجلا أن يستحْيى من الله كما يستحيى من رجل من صالحى عشيرته لا يفارقه.

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعنى حفظُ اللسان من لغو الكلام قال تعالى: ﴿مَا يَلْفظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وعن النبى ﷺ قال: «إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه» (رواه أحمد)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجلٌ فقال يا رسول الله: إنى مطاع فى قومى فما آمرهم؟ قال له: «مرهم بإفشاء السلام وقلة الكلام إلا فيما يعنيهم» (إتحاف السادة المتقين للزبيدى)، وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «كان فى صحف إبراهيم عليه السلام وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات، ساعةٌ يناجى فيها ربه، وساعةٌ يحاسب فيها نفسه، وساعةٌ يتفكر فيها فى صنع الله، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث: تزودٍ لمعاد، أو حرفةٍ لمعاش، أو لذةٍ فى غير محرَّم، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه مقبلا على شبابه، حافظًا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه».

* * *

# الرحمة فى الحرب

من أدب الحرب فى الإسلام أنه يوصى القائد بجيوشه خيراً كما حرم الإسلام قتل الصبيان والمرضى والشيوخ والنساء، ونهى عن هدم البيوت والـمُثلة وقتل الحيوان، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ومن الاعتداء محاربة من لا يحارب مثل أبناء المحاربين ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم وعبادهم المتفرغين للعبادة وعلمائهم المتفرغين للعلم، وكيف لا يكون ذلك أليس هو رسول الرحمة؟ فالرحمة مشروعة فى الإسلام فى جميع الحالات فإن النبى ﷺ حين بعث معاذا إلى اليمن أوصاه وعهد إليه، ثم قال له: «يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر، وإنك ستقدُم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» (مختصر سيرة ابن هشام ص٢٩٢)، وروى سليمان بن بُرَيدة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدُروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا» (فقه السنة ٣/ ٦٠)، وعن ابن عمر رضى الله عنهما «أن النبى ﷺ رأى امرأة مقتولة فى بعض مغازيه، فأنكر قتل النساء والصبيان» (متفق عليه)، وروى أن رسول الله ﷺ مر بعد أن انتصر المسلمون فى غزوة حنين بامرأة مقتولة والناس مزدحمون عليها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأةٌ قتلها خالد بن الوليد فقال: «أدْرِك خالدا فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا» (سيرة ابن هشام ص٥).

فلا يجوز أن تتعدى الحرب إلى المدنيين الذين لا يشتركون فيها من شيوخ ونساء وعجزة وعباد منقطعين للعبادة، وعلماء منقطعين للعلم إلا إذا قاتلوا أو كان لهم فى تدبير الحرب رأى ومكيدة؛ لأن القتال لمن يقاتلنا (السياسة الشرعية لابن تيمية ص٥١).

لقد التزم الصحابة بمبدأ الرسول ﷺ الرحمة فى الحرب، فلقد وصى أبو بكر رضي الله عنه أسامة حين بعثه إلى الشام فقال: (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع (يريد الرهبان) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد: (أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنتْصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننتصر عليهم بفضلنا لم نَغْلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا كما سُلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا، اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم) (فقه السنة ٤٨/٣).

هذه رحمة الإسلام فى الحرب لا يضارعها أى قانون دولى كما أنها تسمو على القانون الدولى بأنها أحكام دينية لها من الجلال والطاعة النفسية ما للدين وأحكامه، فليسمع العالم كله رحمة الإنسان فى الحرب وليتعلموا حقوق الإنسان من الإسلام.

* * *

## الأخذ بالحلال والنفور من الحرام

مما لا ريب فيه أن الله سبحانه وتعالى يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر وعندما أحل الله لهم ما أحل وحرم عليهم ما حرم فلا ريب أن هذا مما يعود على الناس بالخير من أجل ذلك اقترن ما أحل الله بالطيب وما حرم بالخبائث يقول الله عز وجل: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، من أجل ذلك دعا الله سبحانه وتعالى عباده أن يأكلوا من رزقه ووصفه بكونه حلالا طيبا فيقول عز وجل: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، وكثيراً ما نجد الصفات الطيبة للطيبات من الرزق التى أحلها الله سبحانه فنجد الله سبحانه وتعالى يصف اللبن وهو حلال طيب فيقول سبحانه: ﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]، ويصف الله سبحانه وتعالى شراب العسل ويمتن على عباده بقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩]، وما يأخذه الرجل من زوجته بطيب نفس والذى قد يكون جزءاً من الصداق أو كله يقول سبحانه: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤].

### الخبائث الضارة بالإنسان فى بدنه وفى عقله:

وفى مقابل الطيبات من الرزق الخبائث التى حرمها الله سبحانه وتعالى ولا ريب أن كل ما حرمه الله عز وجل فهو خبيث يهدد بنيان الإنسان الذى هو من خلق الله عز وجل وجعله فى أحسن تقويم، والمؤمن حقًا الذى وجد حلاوة الإيمان فى قلبه لا ريب أنه يسعد كثيراً بالمطعومات والمشروبات التى أحلها الله سبحانه وتعالى حيث يجد فيها الخير ويتمتع بها وكلما تاقت نفسه إلى طعام أو شراب اتجه إلى الطيبات من الرزق وهو فى الوقت نفسه يشعر بالازدراء والنفور من الخبائث التى حرمها الله

سبحانه وتعالى، وهو على يقين بأن فى الحلال ما يغنى عن الحرام وإذا مسه الشيطان بنزغاته ووساوسه ليزين له ما حرم الله سبحانه وتعالى من الخبائث فإنه يتذكر ويعتبر، والمجاهد من جاهد نفسه حتى يصل إلى التمتع بالطيبات من الرزق والنفور والازدراء من الخبائث.

**فى الحلال من الطيبات ما يغنى تمامًا عن الخبائث:**

إن النفوس الطيبة التى عرفت ربها تدرك تمامًا أن فى الحلال ما يغنى عن الحرام والله سبحانه وتعالى قد شرع لعباده ما شرع وما جعل عليهم حرجًا فيما أحل وفيما حرم يقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، أما هؤلاء الذين غفلوا عن ذكر الله فإن الشيطان حينئذ يسلط عليهم جنوده ليزينوا لهم الخبائث التى تؤدى بهم إلى خسران الدنيا والآخرة، ويصدق فيهم قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، إنهم فى غفلة عن فضل الله وسعة رحمته فيما أحل الله من الطيبات وفيما ما يغنى عن الحرام فكما يقول أهل العلم إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم الربا فقد أحل التجارة الرابحة، وإذا كان الله عز وجل قد حرم القمار فقد أحل أكل المال بالمسابقة النافعة فى الدين بالخيل والإبل، وإذا كان الله عز وجل قد حرم الحرير فقد أحل لعباده الملابس الفاخرة على أن يكون بعيداً عن الزهو والخيلاء حيث ورد فى الأثر كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان صرف أو مخيلة وإذا كان الله عز وجل قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فقد أحل ما طاب للمسلم من النساء مثنى وثلاث ورباع وعليه فالمؤمن حقًا هو الذى يفرح ويتمتع بالطيبات وينفر من الخبائث.

* * *

# الخدمة العامة كطريق إلى الجنة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أىُّ الناس أحبُّ إلى الله تعالى؟ فقال: «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضى عنه دينا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمْشِى مع أخ فى حاجة أحبُّ من أن أعتكف فى هذا المسجد شهرًا، ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام» (الأصبهانى - ترغيب وترهيب).

عزيزى القارئ هيا بنا نحلق معًا فى سماوات هذه التوجيهات النبوية السامية، لنرى كيف ترتبط النفوس المؤمنة بالله، فيكون صاحبها من أحب خلق الله إلى الله، وكيف تمتلئ القلوب المخلصة برضا الله يوم القيامة، وكيف تثبت أقدام الصالحين يوم القيامة، يوم تزل الأقدام؟

يمكننا أن نرى ذلك كله وغيره معه، من خلال تلك الإجابة الوافية التى قدمها النبى ﷺ لذلك الرجل الذى يستفسر عن أحب الناس إلى الله تعالى، فأحب الناس إلى الله تعالى هو أنفعهم لعباد الله، ومصادر نفع الناس كثيرة، ومن أبرز ميادينها الخدمة العامة، والعمل الصالح للآخرين فى حيادية وتجرد من نحو قضاء الحاجات، المادية والمعنوية، وكذلك إدخال السرور على نفس المسلم، بأى صورة من الصور، أو بأى شكل من الأشكال، فإن استطعت أن تفرج عن أخيك المسلم كربة من كرب الدنيا، فإن الله يفرج عنك بها كربة من كرب يوم القيامة، وإن استطعت أن تخلصه من ورطة وشدة ألمت به، فإن الله يخلصك بها من ورطات يوم القيامة وشدائده، كقضاء دين لزمه، أو دفع غائلة الجوع والمسْغبة عنه عن طريق إطعامه، وكذلك الحال عند ستر عورته بكسوته، فهذه الأعمال هى من أحب الأعمال إلى الله تعالى، أو إن شئنا الدقة فإننا نقول: إنها أحبُّ الأعمال إلى الله على الإطلاق؛ ذلك لأن الذى

يتحرك فى الحياة الدنيا على هذا النحو الكريم، ما من شك فى أن الله سبحانه وتعالى يوفقه لأداء ما افترضه عليه من العبادات الأخرى، فيزداد بذلك كله قربًا من رب العالمين.

ولك أن تعجب معى من روعة البيان النبوى، والهدى المحمدى، الذى يستنهض فيه رسول الله ﷺ الهمم نحو المشى فى قضاء حوائج الناس، فيعظم على ذلك الأجر الأخروى، فالمشى فى قضاء حوائج الإخوان يفضل ثواب اعتكاف المعتكف شهراً كاملا فى مسجد رسول الله ﷺ، وحتى نكون على علم بحقيقة هذا الثواب، فقد أخبرنا النبى الكريم أن من اعتكف يومًا فى سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعة خنادق، بعد ما بين الخندق والآخر بعد ما بين السماء والأرض، وما هذا إلا ليهون كل مشقة، ويرخص كل غال فى سبيل تذليل هذه العقبات، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، فإن وفق الله ذلك الساعى فى قضاء حاجة أخيه حتى قضاها له، ثبت الله قدميه يوم القيامة يوم تزل الأقدام.

كما يوضح النبى ﷺ حقيقة كظم الغيظ لأولئك القادرين على إمضائه، وإيقاع النكال بمن غاظهم، ويبين عظيم الثواب عند الله، فكما رضى هذا الكاظم لغيظه بالامتثال لأمر الله إذ يقول: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فإن الله عز وجل يكافئه على ذلك ويجزيه الجزاء الحق فيملأ قلبه برضاء خالقه، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ومما لا شك فيه أن أى ثواب ومهما عظم، فإنه لا يقاس برضوان الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

وعلى هذا النهج الكريم، والمنهج القويم، تؤسس حضارة الإسلام على مكارم الأخلاق، وينهض بنيانها على أعمدة الفضيلة التى أعلى رسول الله ﷺ صرحها فى الأرواح والنفوس، قبل أن تجسد فى ماديات الحياة، ومن هنا وجدت التناغم والتكامل والانسجام، وسيبقى هذا البناء شامخًا ما سرت فيه أخلاق الإسلام، فوفقنا اللهم للأخذ بهذه الأسباب، حتى نزداد منك قربًا، ولك حبًا يا كريم.

* * *

# العمل الصالح كأساس الحياة الكريمة

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

بهذا البيان القرآنى المحكم يذكرنا الله تبارك وتعالى بأن الحياة الكريمة الطيبة هى التى تنشأ فى ظل العمل الصالح، الذى يعتمد على ركيزة الإيمان الصادق بالله رب العالمين، يستوى فى ذلك الذكر والأنثى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيوفيهم الله أجورهم كاملة غير منقوصة.

ومن أبرز ملامح الحياة الحرة الكريمة الطيبة، ما يذكرنا به فى هذه الآية الكريمة من الاعتماد على العمل الصالح، الذى يتخذ من الإيمان الصادق بالله رب العالمين ركيزة قوية له، حتى يسعد الناس فى ظل ذلك بالخير العظيم والثواب الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتلك هى الحياة التى ترف عليها أعلام الأمن والسكينة، فلا يلبث الناس فى ظلها أن يحظوا بالتمكين فى الأرض، كما يمكن الله لهم دينهم الإسلامى الحنيف، المرضى عنه من قبل المولى عز وجل، مصداقا لقول ربنا الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالعمل الصالح شرف أى شرف، وحينما نطالع كتاب ربنا تبارك وتعالى، فإننا نجده يقص علينا من أخبار المرسلين، ما يرشدنا إلى بعض الأعمال التى كانوا يقومون بها فى حياتهم الدنيا، فهذا نوح عليه السلام وقد أتقن النجارة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، كما كان داود عليه السلام يعمل حداداً: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ

﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وموسى عليه السلام كان أجيراً في رعي الأغنام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، كما كان سيدنا محمد ﷺ يرعى الغنم لأهل مكة وهو صغير، كما مارس التجارة مع عمه أبى طالب، وتاجر فى مال السيدة خديجة رضى الله عنها يقول: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» (رواه البخارى).

ولقد أولت الشريعة الإسلامية الأعمال العامة، والأعمال الخيرية التطوعية بخاصة، أولتها كبير عنايتها، وعظيم رعايتها، وحثت عليها فى كثير من آى الكتاب العزيز ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ومن أهم معالم الأعمال التطوعية فى ظلال الشريعة الإسلامية التجرد، وحب الخير، وانتظار الثواب من الله وحده يوم القيامة ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والأعمال الصالحة هذه لا تقتصر على عمل بعينه، أو مجال من مجالات الحياة فحسب، وإنما تمتد لتشمل كل الأعمال، وذلك أخذاً من توسيع معنى المسجدية، ففى الحديث الشريف: «جعلت لى الأرض مسجدًا» (رواه البخارى)، فالأرض التى نعيش عليها هى المسرح الحقيقى لشتى مجالات أعمال البشر، والصالحون من عباد الله هم الذين يعمرون هذه الحياة، بكل نافع مفيد، وبقدر ما يحرص الناس على ذلك بقدر ما يتغير وجه الحياة إلى الأفضل والأحسن.

والأعمال الصالحة تستغرق العمر كله، حتى ولو أوشك سامر الحياة أن ينفض، ففى الحديث الشريف: «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل» (رواه أحمد).

فهل بعد هذا كله تلصق التهم بهذا الدين بأنه وراء تخلف المسلمين، اللهم إنا نبرأ إليك من هذه الافتراءات، فدينك يحمل فى طياته الخير الكثير.

# الحذر وحسن الظن

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين» (رواه البخارى).

فمع هذا التوجيه النبوى السامى، نقضى هذه اللحظات، متدبرين متأملين، لكى نأخذ لأنفسنا العظة والعبرة، فهذا الحديث الشريف على وجازة لفظه، يتضمن نصيحة نبوية غالية، لا تُقدر بثمن، ولا تُشترى بمال، فهى الحكمة بعينها، ويكفيها صحة ودقة أنها صادرة عن رسول الله ﷺ وهو فى حرصه على الأمة ودأبه عليها مَن هو، إنه النذير الأمين.

فإذا كنا نعرف أن الخير والشر يسيران جنبًا إلى حنب، فى صراع مرير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الإيمان الصحيح بالله رب العالمين، إنما يستقر فى وجدان صاحبه على أساس سليم من الحكمة السديدة، والعقل الواعى المستنير، ومن هنا ترجع أهمية هذا الحديث فى مجال التربية الاجتماعية، والاجتماع البشرى المتحضر، فهو دعوة لكل مسلم كى يعالج كافة شئونه فى ضوء التجارب التى مرت به، والتى تعرض لها هو، أو تلك التى تعرض لها غيره، وبلغه خيرها، فإذا تصرف الإنسان تصرفًا ما، وأصابه خطر من جرائه، فإن عليه أن لا يعاود الكرة من جديد، ولا يتصرف مثل هذا التصرف مرة أخرى؛ لأنه إذا لم يستفد درسًا من تصرفه الأول، وكرره مرة ثانية فإنه سيقع فى نفس الخطر الذى وقع فيه أولاً، ويكون مثله حينئذ كمثل ذلك الإنسان الذى وضع يده فى جحر من جحور الأرض فلدغته حية أو عقرب.

ومن هنا جاء هذا التوجيه النبوى الكريم، بالتنبيه إلى أنه لا ينبغى للمؤمن أن يتعرض للأذى من موطن واحد مرتين أو أزيد «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وإنما خص النبى ﷺ المؤمن بهذا التوجيه؛ لأن المؤمن دائمًا وأبداً يحسن الظن بالناس، وقد يدفعه ذلك إلى السهو أو الغفلة ممن أساء إليه مرة فينخدع بمعسول

الكلام أكثر من مرة، ومن هنا جاءت هذه النصيحة، حتى يكون المؤمن فى حسن ظنه بغيره أكثر حرصًا وحذراً، حتى لا يعرضه حسن ظنه للأذى الكثير فحسن الظن مطلوب، والفطنة والحذر مطلوبان كذلك.

ومما لا شك فيه أن هذه الحكمة تُلقى لنا أضواءً كاشفة على كثير من جوانب الحياة الاجتماعية، وبخاصة أولئك الذين يلدغ الواحد منهم أكثر من مرة من جحر واحد، كما تسوقهم الغفلة إلى خوض التجارب القاسية التى تعرضوا لمراراتها أول الأمر، وبخاصة فى محيط الرفاق والأصدقاء، بل فى شتى مجالات الحياة، فالعامل الذى يخفق فى عمله مرة، والطالب الذى يرسب فى دراسته عامًا، والتاجر الذى يخسر فى تجارته، وكذلك المريض الذى يعرف أنواع الطعام والشراب، أو الأعمال التى تزيد من علته، وتضاعف مرضه، وكذلك المدخن والمدمن، وكل إنسان يتعرض لنوع من الإخفاق أو الأذى كنتيجة لتصرف قام به، فإن هؤلاء وأولئك إن لم يتنبهوا لذلك، ويقلعوا عن هذه التصرفات، فإنهم يضعون أيديهم فى ذات الجحر الذى لدغوا منه سابقًا، والواجب يحتم على كل منهم أن يقف مع نفسه متدبراً متأملاً، حتى يستفيد بهذه التجارب التى مرت به، أو بغيره.

والقرآن الكريم دستور هذه الأمة الخالد، يلفت أنظارنا ويوجه عقولنا إلى أخذ الحذر فى مواضع كثيرة منه، يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

ويقول رسول الله ﷺ «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود» (السيوطى فى جامعه الصغير).

وهكذا نرى أن الإسلام دين يفرض على أتباعه أن يكونوا على مستوى المسئولية فى كافة أمورهم، يعالجون شئون حياتهم فى حكمة، وعقل، ويتصرفون فى ضوء التجارب الصادقة، فى حرص وذكاء، فالمؤمن لا يُخدع، ولا يستغل، ولا يستغفل، ولا يلدغ من جحر واحد مرتين. فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، والباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، يا من أمره بين الكاف والنون، يا من تقول للشىء كن فيكون.

# تربية الشباب

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [ لقمان: ١٣ - ١٩ ]

لقد عنى الإسلام بإعداد النشء عناية عظيمة، فأولاهم فائق توجيهه ورعايته، ذلك لأن الشباب فى كل أمة هم طلائعها الفتية، وسواعدها القوية، التى تخط لها صحائف المجد التالد، والعز الخالد، ولا عجب فى ذلك فهم وصية رسول الله ﷺ فقلوبهم رقيقة، وأفئدتهم لينة، وهم من قبل ومن بعد أمانات غالية لدى أهلهم وذويهم، وعارفيهم ومخالطيهم، ولا نحسبنا مبالغين أو مغالين إذا قلنا: إنهم أمانات غالية فى أيدى كل من له شأن بولاية أمرهم من قريب أو من بعيد، كالآباء والأمهات، والأساتذة، والمربين، والدعاة، والمرشدين.

وعليه فإن فى تقديم هذه الوصية الجامعة من الخير ما فيه، فهى بحق وصدق تشكل الخطة الإسلامية الرائعة والجامعة فى تربية الشباب، فقد جاءت على لسان رجل لابنه، من منطلق الشفقة والرحمة، ونحن نستطيع أن نبين أهم الأخلاق الإسلامية التى تضمنتها هذه الوصية على النحو التالى:

* الاهتمام بجانب العقيدة الصحيحة: فالذى يستطيع العبد أن يصرف عبادته إليه

هو الله رب العالمين، فلا ينبغى ولا يليق أن يشرك العبد بربه أحداً ، لأن الشرك يسوى بين المخلوق والخالق، ويسوى بين من لا يملك أدنى شىء بمن فى يده ملكوت كل شىء، وهذا هو الظلم بعينه، ظلم للنفس، وظلم للخالق، وظلم للشريك المتخذ من دون الله، فالركيزة الأساسية فى الإصلاح هى العقيدة.

* الاهتمام بالعمل النافع المثمر: ويأتى فى مقدمة هذه الأعمال جميعًا الصلاة، لما لها من أهمية فى تحقيق صلة العبد بربه وخالقه، فهى باكورة ثمار الإيمان الصحيح بالله رب العالمين، وهى من جانب آخر ثمرة مثمرة، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كما أن العقيدة الصحيحة تسهم بفاعلية فى تقديم الخير للمجتمع، فتحض صاحبها على فعل الخير والصلاح، وتصد فى نفسه روح الشر والعدوان والفساد، من خلال ما تثمره فى نفس العبد من التخلق بخلق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أنها تنمى فى الفرد روح التحلى بالصبر فى مواجهة الشدائد والأزمات على نحو ما ورد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

* الوفاء بمتطلبات السلوك العام الفاضل، فتدعو إلى الإحسان إلى الوالدين وبرهما، والابتعاد عن كل ما من شأنه الإضرار بالآخرين، كالزهو والغرور، والخيلاء والتعالى على الناس، وكذلك كل التصرفات المزعجة.

* رياضة النفس على اللجوء إلى الله تعالى فى أوقات الشدة والرخاء، ففى الحديث الصحيح: «تعرف على الله بالرخاء يعرفك فى الشدة» (الدر المنثور للسيوطى)، ويقول أيضًا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (رواه الترمذى).

فهل بعد هذا البيان محل للمزايدة على الإسلام وأهله؟

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

# الأخذ بأسباب القوة

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (رواه مسلم).

ومع خلق الأخذ بأسباب القوة يرشدنا النبى الكريم ﷺ إلى ذلك، ولا يقتصر ذلك على مجال بعينه، وإنما يمتد ليشمل سائر مجالات الحياة، ويحتل مركز الصدارة فى ذلك كل قوة الإيمان بالله رب العالمين، فإذا ما قوى إيمان العبد بربه ازداد له حبا، وازداد منه قربا، فيصبح مصدر خير وبركة، وعنصر فضل وكرامة فى كل موقع يعمل به، فلا بخل ولا حسد، ولا خيانة ولا وغدر، ولكن العبد يصبح عبداً ربانيًا تتوهج فى نفسه شعلة الإيمان ويفيض الخير من جوانحه على جوارحه، فيتحلى بطهارة القلب والروح، ونظافة البدن والجوارح، ويكون عبداً ربانيًا يقول للشىء: كن فيكون.

ومجالات القوة فى دنيا المسلم متعددة ومتنوعة، فالمسلم مطالب بالمحافظة على سلامة جسده، وصيانة بنيانه، ولن يتحقق له ذلك إلا فى ظل مراعاة قواعد الاعتدال والتوسط فى كل مرافق الحياة، وبخاصة فى الطعام والشراب، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

يقول جل ذكره وتقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ويقول رسول الله ﷺ: «بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه» (سنن الترمذى).

فالمسلم القوى فى إيمانه، القوى فى بنيته وهيئته، القوى فى عزيمته وإرادته،

يشكل إضافة فاعلة فى دنيا الناس، حيث يصبح أكثر قدرة على الإنتاج والإبداع والابتكار، بما فيه خير البلاد والعباد، كما أنه يصبح قادرا ومؤهلا للذود عن الأهل والوطن والعشيرة إذا ما دعت لذلك الدواعى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كما دعت الشريعة كذلك إلى أخذ أسباب القوة الاقتصادية، بتنمية الموارد واستغلالها الاستغلال الأمثل، وترشيد الطاقات البشرية وتأهيلها التأهيل السليم، وقد وجه النبى ﷺ رجلاً جاء يسأله عطاء، وقد رأى فيه النبى قدرة على العمل والكسب، فقال له: «اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يومًا» (رواه أبو داود)، فكان هذا التوجيه خيراً وبركة لهذا الرجل ولأمثاله.

أضف إلى ذلك كل اهتمام الإسلام بالقوة المعرفية التى تجعل للحياة معنى فى ظل اتباع أحدث الأساليب فى العمل والاكتساب، فذلك كله أعون على معرفة الله وخشيته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فعلى الأمة الإسلامية أن تحرص على تنفيذ هذه التوجيهات بدقة وإخلاص حتى تضرب للناس المثل فى الجد والمثابرة، وحتى تخرس ألسنة الماكرين، الذين لا يفتئون يذكرونها بالشر، ويضمرون لها العداء، مع أنهم يتقلبون فى خيرها، والله من وراء القصد.

* * *

# الاستقامة

يقول الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

الاستقامة: الطريق الذى يكون على خط مستو، واستقامة الإنسان يستلزم المنهج المستقيم نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦].

هذه الآيات مجموع آيات قرآنية تكشف عن شخصية رسول الله ﷺ وما يدعو إليه من مجتمع قوى قائم على الحق والعدل سالكًا الطريق المستقيم أو بالتعبير القرآنى الصراط المستقيم، والصراط المستقيم له معان عدة تنطوى فى الدين والإسلام والقرآن والرسول فكلها معان تزرع القيم وتثبت العقيدة، وترسخ المبادئ التى جاء بها القرآن.

الدعوة إلى توحيد الله، وإلى عبودية الله واضحة كل الوضوح من خلال الآيات الموجهة إلى الرسول مباشرة باعتباره داعيًا وهاديًا وموجهًا ومرشداً ويعطى هذا المجتمع قوة، وما أجمل القوة العادلة عندما تنساب برداً وسلامًا فتمحو المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة وتطفئ الآلام التى برَّحَت بالمظلومين والمستضعفين.

إن القوة التى تقيم بين الناس الموازين بالقسط هى ما أمر الإسلام بإعداده على بذل النفس والنفيس فيه، وكأن الإسلام يود لو أنصف الناس من أنفسهم بالعقل والحكمة بدل أن يلتزموا القهر والعنف غير أن غرائز السوء غلبت فلم يبق من قمعها بد. والأديان لا تحمل السلاح إلا مكرهة، وأنبياء الله كافة كانوا يتمنون لو استمسك الناس بفضائلهم، وتعرفوا إلى ربهم وكرسوا حياتهم فى شكر نعمه وأحيوا ضمائرهم بمراقبته، وأحسنوا الاستعداد للقائه وذلك لا يتم إلا من خلال منهج قويم وصراط مستقيم ولننظر إلى ما وجهه لرسول الله ﷺ من مجموع الآيات: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]،

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد: ٣٦].

والاستقامة هى التى تحدد الشخصية السوية التى يكون لها أثرها البالغ ودورها الفعال فى بناء المجتمع وتكوين الأمة وتشكيل الحضارة وتطهير المجتمع من الأرجاس والمنكرات والاستقامة لها طبيعتها ومهمتها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والنفاق والشقاق، من الحسد والرياء وهضم حقوق الضعفاء إلى نور العلم والإيمان والمعرفة، وبالاستقامة ينضبط السلوك الفردى والجماعى، والاستقامة تعلمنا حقوق الأفراد وحقوق الجماعات.

إن الاستقامة مشكِّلة للأخلاق ومصلِّحة لها ومهذِّبة للضمائر ومزكِّية للنفوس ومنظِّفة للمشاعر، فما من أمة مستقيمة ولها ما لها من الريادة والقيادة والفضائل ولها ما لها من رصيد خلقى كريم فكفى أن الاستقامة توفر الأمن والأمان والسكينة والسلام والاستقرار والوئام.

الاستقامة تحمل مقاصد الإسلام وأهدافه، وتبرز عوامله الذاتية والخارجية فمن مقاصد الإسلام المحافظة على الزمن، الاهتمام بالإنسان، إيجاد القوة المترابطة، ممثلة فى المؤمنين، إيجاد العمل الصالح، التواصى بالحق والتواصى بالصبر، ولنقرأ فى ذلك سورة العصر: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾.

وهكذا تكون الاستقامة ميزة هذه الأمة، الأمة التى اتسمت بالخيرية والوسطية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الأمة التى حققت الفلاح من خلال ما استقامت عليه، ودعت إليه من حب وإخلاص ويكفى أنها ربطت حقيقة العبادة بحقيقة الاستقامة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

والاستقامة قريبة من كل مؤمن متوجه إلى ربه بالإخلاص والعمل الصالح، فالمستقيم يكون محققًا للهداية وصلاح البال واستقرار النفس حيث يعيش الإنسان فى بحبوبة من العيش وتحقيق السلامة فى الآخرة.

* * *

# طلب الرزق والسعى إليه

من حكمة الله عز وجل البالغة أن ربط رزقه الذى قدره بأخذ الأسباب له، يستوى فى ذلك الإنسان العاقل وغيره من الدواب التى خلقها الله سبحانه، فما من مخلوق ذى روح إلا وهو مغروس فيه السعى لطلب رزقه، نجد ذلك فى الإنسان والحيوان والطير وكل هذا يثمر الحركة فى الحياة ويجعل حركة الأحياء قائمة على الأخذ والعطاء، كما أن ذلك يجعل المخلوق خادمًا ومخدومًا على السواء، وفى هذا يقول سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومع أن الله عز وجل قد ربط عطاء رزقه بالأخذ بالأسباب والمشى فى مناكب الأرض إلا أن المؤمن حقا هو الذى يعطى للأسباب حقها من الحركة والعمل والفكر ثم هو بعد ذلك يترك ثمرة جهده وسعيه إلى مسبب الأسباب المعطى الوهاب، وهو الله سبحانه وتعالى موقنًا بأن ما يقدره الله عز وجل ومريده هو خير وأولى مما يريده لنفسه، وثمرة هذا اليقين سكينة النفس والرضا بما قسم الله عز وجل ولا تتحقق الحياة الطيبة إلا بهذا المعنى، وذلك لأن الحرص على عرض الدنيا مع القلق الشديد لا ريب أنه يؤدى إلى عيشة الضنك، ولهذا حرص رسول الله ﷺ على غرس الرضا بما قسم الله فى نفوس أصحابه وبيَّن لهم بوحى من ربه أن الرزق مقدر بقدر الله كالأجل المسمى عند الله سبحانه، فكل منا يأتيه أجله المسمى عند ربه كما يأتيه رزقه الذى قدر له، فعن جابر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له فأجملوا فى الطلب؛ أخذ الحلال وترك الحرام» (الترغيب والترهيب للمنذرى)، فهذا الحديث الشريف فيه نهى من نبينا محمد ﷺ للمسلمين من الضجر واليأس والقنوط حتى يقولوا بتزيين من الشيطان: سعينا فتأخر رزقنا، فكل شىء مقدر والله سبحانه وتعالى يسوق الأرزاق

لأصحابها بعدله ورحمته التى وسعت كل شىء، وإذا أعطى الله عز وجل عرض الدنيا لإنسان بقدر وأعطى غيره فبسط له رزقه ففى كل خير لمن قدر له ومن بسط له فى الرزق والله عز وجل هو العليم الخبير بما يصلح خلقه، ولهذا بين نبينا محمد ﷺ بأن الغنى لا يتحقق أبداً بكثرة عرض الدنيا، فقد تكون هذه الكثرة سبيلاً إلى التهلكة وخسران الدنيا والآخرة، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وإن الله عز وجل يؤتى عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا فى الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم» (مجمع الزوائد للهيثمى)، ثم إن الحرص على طلب عرض الدنيا دون ضابط ودون إيمان، ورضا بما قسم الله تعالى قد يجر بتزيين من الشيطان إلى أخذ الحرام، وذلك عن طريق الغش أو السرقة أو الربا أو التجارة فى الأغذية المغشوشة أو الكذب على الله وعلى الناس، ولهذا غرس رسول الله ﷺ فى نفوس أتباعه الإجمال فى الطلب وفسره بالأخذ من الحلال وترك الحرام حتى يتطهروا من الرجس والدنايا والمذمومات أجمع، وهذه كلمات يسيرة تعد دستوراً وتعد نبراسًا على المؤمن حقًا أن يتحلى بها حتى لا يقع فى الذلل ويندم حين لا ينفع الندم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا ترضين أحدًا بسخط الله ولا تحمدن أحدًا على فضل الله» (المعجم الكبير للطبرانى)، أى لا يكن رضا أحد بعمل ما يغضب الله سبحانه، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا تشكرن أحداً تعتقد أنه ساق إليك رزقًا، فالحمد لله تعالى وحده ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله أى لا تخاصم أحداً فى طلب عطاء لم يقدر لك، فإن رزق الله عز وجل بقسطه وعدله جعل الروح والفرج والرضا فى اليقين وجعل الهم والحزن فى السخط.

* * *

## رعاية الآباء للأبناء وحفظ حقوقهم

من رحمة الله عز وجل التى وسعت كل شىء أن جعل وداً وشعوراً عاطفيًا من الآباء تجاه أبنائهم بصورة تفوق كل شعور بين مخلوق ومخلوق، وجذور هذا الشعور تعود إلى الفطرة التى فطر الله سبحانه وتعالى الخلق عليها حيث نجد أن رعاية الأم لولدها لا تقتصر على الإنسان وحده بل نجده فى معظم ما خلق الله عز وجل من حيوان وطير والدواب التى تدب على الأرض، ومنهج الله سبحانه وتعالى يقوم دائمًا على تجسيد هذا الشعور وتقويمه وإصلاحه فإنه ولا ريب يتأثر بهذا ليكون بعد ذلك لبنة صالحة من لبنات المجتمع وفى هذا يقول أحد الشعراء:

وينشأُ ناشىءُ الفتيانِ فينا على مـا كان عــوَّده أبــوهُ

والإسلام قد حرص على رعاية الناشئة حتى قبل أن يولدوا ويتمثل ذلك فى الحض على اختيار المرأة الصالحة ذات الخلق والدين، يقول نبينا محمد ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» (المغنى عن حمل الأسفار للعراقى)، وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» (رواه أحمد)، والسر فى هذا أن الإنسان عندما يولد فإنما تتفتح عيناه أولاً على أمه فيراها فيتأثر بقولها ويتأثر بسلوكها ويتأثر بعباداتها، فهى التى تعلمه كيف يعبر ويبين عما فى نفسه، وهى التى تغرس فيه الخلق فلا عجب إذا كان الإسلام قد حض على اختيار المرأة ذات الخلق والدين.

ورحم الله من قال:

مَــنْ لـى بتربيــة البنــات فإنهــا فى الـشـرق علّةُ ذلك الإخفاق

الأمُ مدرســـــةٌ إذا أعــددتهـــــا أعــددت شعبًا طيب الأعــراق

وبعد ذلك نجد أن الوالدين عليهما حقوق على الولد حتى فى اختيار الأسماء فما ينبغى لوالد أن يختار لولده اسمًا يؤذيه فى أيام عمره بل عليه أن يختار

الأسماء الحسنة، فعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا أسماءكم وأحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن» (رواه أحمد)، وقال رسول الله ﷺ: «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة» (رواه أبو داود)، وكثيراً ما غيَّر نبينا محمد ﷺ بعض الأسماء التى تسمى باسم بغيض، فهذه امرأة كان يقال لها: عاصية فسماها رسول الله ﷺ جميلة، وهذا من مكارم الأخلاق حتى لا يطارد الإنسان باسم يكرهه أو يعير به.

ثم إن أفضل نفقة ينفقها الإنسان هى النفقة التى تكون على ولده، ومخطئ من ضيع أهله وقتر عليهم، ولا ريب أن هؤلاء الذين يبذرون المال تبذيراً يسرفون فى أمور لا طائل من ورائها، ثم بعد هذا يقترون على أولادهم، لا ريب أنهم قد قصروا فيما أوجب الله عليهم وسيسألون عن ذلك يوم القيامة، يقول نبينا محمد ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها» (رواه البخارى)، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت» (رواه أحمد)، أى يقتر ويهمل فى الإنفاق على من يرعاهم، وبالطبع هم أولاده بالدرجة الأولى بل إن الإسلام جعل من يسعى لينفق على أولاده صغاراً كالمجاهد فى سبيل الله، أو هو مجاهد حقًا، هذا وينبغى على الوالدين الحرص على غرس مكارم الأخلاق وذلك بالسلوك العملى فما ينبغى لوالد أن يكذب أمام ولده أو يخون أو يغش لأنه إن فعل هذا فهو ضال مضل يحمل وزراً عن نفسه ويحمل أوزار أولاده بإضلالهم، وما ينبغى له أن يفرق بينهم فى شعوره العاطفى أو فى العطاء بل يجب أن يكونوا فى البر سواء، ومن الخطأ البين أن يمدح ولداً ويذم الآخر، ويجهر بحبه لذلك على ذاك حتى لا يوقع بينهم العداوة وحتى لا يفتح باب الشيطان ليغرس بينهم الأحقاد والضغينة، وإذا وصل الولد إلى سن السابعة فعليه أن يأمره بالصلاة ويصحبه للمسجد لقوله ﷺ «مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع» (رواه أحمد).

# مخالطة أهل الإيمان والتقوى

إن المؤمن الصادق فى إيمانه، الكريم فى أخلاقه هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان والتقوى ولا يمنعه فقرُهم من مجالستهم ومصاحبتهم، ومؤانستهم، والتواضع لهم، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [ الكهف : ٢٨ ].

لقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال، وعمار، وابن مسعود، وليجعل لأولئك مجلسًا على حدة، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء الفقراء بقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾.

والمعنى: عليك أيها الرسول الكريم أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك الذين يعبدون ربهم، ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات فى الصباح والمساء، ويداومون على ذلك دون أن يريدوا شيئًا من وراء هذه العبادة سوى رضى الله عنهم ورحمته بهم، ولا تصرف عيناك عنهم، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء حرصًا على مجالسة أهل الغنى والجاه حُبًا فى إيمانهم، ولا تطع فى تنحية المؤمنين الفقراء عن مجلسك أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا، لا تطع أولئك الغافلين الذين كان أمرهم مخالفا للحق ومجاوزا للصواب، ومؤديا للضياع والخسران. فالآية الكريمة تسوق للناس توجيهًا حكيمًا فى بيان القيم الحقيقية للناس، وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى لا فى الغنى والجاه.

ولقد ربى النبى ﷺ أصحابه على هذا الخلق الكريم، خلق مخالطة أهل الإيمان والتقوى. روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال: «مر رجل على النبى ﷺ

فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك فى هذا؟ فقال: رجل من أشرف الناس، هذا والله حرىٌّ إن خطب أن يُزَوَّج، وإن شفع أن يُشَفَّع، فسكت رسول الله ﷺ، فقال له: وما رأيك فى هذا؟ فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حَرىٌّ إن خطب ألا يزوَّج، وإن شفع ألا يُشَفَّع، وإن قال ألا يُسْمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ:هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا» (رواه البخارى).

إن الفضل وعلو المنزلة ليس بالغنى والجاه ولا بالقوة فى الدنيا، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علما ليس فوقه علم.

وهكذا سار الرسول ﷺ وأصحابه على هذا الخلق الكريم خلق مخالطة أهل الإيمان والتقوى وتقديرهم والاعتراف لهم بالفضل، فهذا عبد الله بن مسعود يعترف له الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بالفضل فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشىء منها فنظر أصحابه إلى دقة ساقه فضحكوا، فقال النبى ﷺ: «ما يضحككم؟ لرجلا عبد الله فى الميزان أثقل من أحد» (الاستيعاب فى معرفة الصحابة ٣/٩٨٩).

وهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فى كتابه لأهل الكوفة: (إنى بعثت عمار ابن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى)، وهؤلاء هم أهل الكوفة يقولون لأمير المؤمنين على رضي الله عنه ما رأينا رجلا كان أحسن خلقًا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من عبد الله بن مسعود. فقال على: ناشدتكم الله إنه لصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إنى أشهدك اللهم أنى أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل، وهكذا استجاب الرسول ﷺ وأصحابه لقول الله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾.

# المحافظة على قيمة الوقت

لقد وهبنا الله سبحانه عُمُراً، وجعل له خاتمة ونهاية، ولا ريب أن المؤمن الواعى يُحسُّ فى أعماقه أنه فى سباقٍ مع هذه النهاية، يحاول أن يسجل قبلها أكبر قدر من العمل النافع الذى يحتاج إليه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران: ٣٠].

فموقف الإنسان يوم الحساب مرتبط بالزمن، فهو يحبُّ أن يُقرب الله منه ما عمل من خير، ويتمنى أن يجعل الله بينه وبين السوء أمداً بعيداً وهيهات إلا بفضل من الله ورحمته.

إن الرسالة الإلهية تجعل من أعمال الخير التى طلبها الحق سبحانه إلى عباده كالصلاة والإنفاق رصيداً مدخراً ينفع صاحبه يوم الحساب، وهو يوم لا بيع فيه ولا خلال، وإنما تدور حركته على الجزاء المؤدى لكل من قدم عملا صالحا فاستحق أن يُثاب عليه، أو اقترف عملا سيئًا فاستوجب غضب الله عليه، إن الإحساس بالزمن يتفاوت من شخص إلى شخص، كما يختلف من أمة إلى أمة. ولم يعرف التاريخ أمة قدس دستورها الزمن، وعظم شأن الوقت كهذه الأمة التى حدثها الله سبحانه دائمًا عن نفسه، وعن خلقه حديثا مقيسا بكل دقة.

لقد حدث الله عن خلق السموات والأرض فذكر أنه كان فى ستة أيام، وحدث عن أمره وإرادته، لما يوجد من مخلوقات فذكر أن ذلك يتم فى غير زمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وحدث سبحانه حديثًا رهيبًا عن طريقة الحساب على الزمن الماضى والعمر الضائع فى آيات بينات تتصدع لسماعها القلوب، قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ - ١١٦].

إن الدقائق والثوانى فى أعمار الأمم وفى حياة الأفراد لها وزن وحساب، فالساعات الطويلة ليست فى حقيقتها سوى دقائق وثوانٍ، وضياع الثوانى هو فى حقيقته ضياع لتلك الساعات التى ينقضى بمرورها عمرُ الإنسان وينتهى بها كفاحه من أجل الحياة ومن أجل التقدم، ومن أجل الآخرة، والواقع أن الثروة التى يجمعها أى إنسان مكافح ليست سوى كمية من الزمن تحولت إلى ذهب، كم من الساعات والأيام، والسنين تضيع فى حياة هذه الأمة على المقاهى، وفى ضروب اللهو، وفنون الرخاوة والتهتك؟ بل فى النوم والكسل، والفوضى، والثرثرة داخل البيوت والمكاتب والمصانع والدواوين؟ على حين يسهر أعداؤنا، ويكدحون فى كل دقيقة، بل فى كل ثانية من أجل تحصيل أسباب القوة، ومن أجل فرض سيطرتهم على مصائر العرب والمسلمين.

فنحن نضيع السنين، ولا نحس بمرورها، وهم يحاسبون أنفسهم على الثوانى مخافة أن تمضى دون إنتاج؛ لأن ذلك جزء من تقدمهم، ونحن المسلمين مأمورون أن نحافظ على الوقت، وأن نعمل حساب المستقبل فى نصوص عقيدتنا، وفى سلوك أسلافنا، وفى شعائر ديننا الحنيف، وأن نصنع من أعمارنا، من أيامنا، من دقائقنا وثوانينا أسلحة للنصر وعدة للبقاء ومعبرا للخلود، وطريقا إلى رضوان الله.

* * *

## الاعتدال في الطعام والشراب

لقد امتن الله على عباده بأن سخر لهم الأنعام حيث أسقاهم من بطونها لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين، وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذى يأكله العباد طريًا ناضجًا وحاضراً ومدخراً وطعامًا وشرابًا لذيذاً مباحًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

لقد أباح الله لنا الطيبات من الرزق وهى كل ما فيه نفع أو لذة من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل فى ذلك جميع الحبوب والثمار وجميع حيوان البر والبحر إلا ما استثناه الله كالسباع وغيرها من الخبائث، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٥]، ونلاحظ أن الله تعالى كرر إحلال الطيبات مع ذكره فى الآية قبلها وذلك من قبيل الامتنان ودعوة العباد إلى شكره وذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ولقد أنكر الله على من حرم ما أحل الله من أنواع اللباس والطيبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والمعنى: من ذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد، ومن ذا الذى يضيق عليهم ما وسعه الله لهم، وهذا التوسع من الله لعباده المؤمنين بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، ومفهوم الآية: أن من لم يؤمن بالله أو استعان بالطيبات على معصية الله فإنها غيرُ خالصة ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها ويُسْأل عن النعيم يوم القيامة.

وإذا كان الإسلام يبيح الاستمتاع بالطيبات من الرزق فهو أيضًا بجانب ذلك

يأمر العباد بالعدل والقسط فى التمتع بهذه الطيبات، وألا يكون سببا لنزول العقوبات ومحو البركات، بل يجب أن تكون عونا على الطاعات لرب الأرض والسموات، يقول تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولقد بين الفقهاء أن أكل الطيبات على مراتب، فمنه ما هو واجب ومنه ما يندفع به الهلاك، فإن ترك الأكل والشرب فى هذه الحالة فقد عصى؛ لأن فيه إلقاء بالنفس إلى التهلكة، قال تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ويقول جل شأنه: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، ومن الأكل ما هو مأجور عليه، وهو ما زاد على ما يندفع به الهلاك، ومن الأكل ما هو مباح وهو ما زاد على ذلك إلى حد الشبع لتزداد قوة البدن، أما الأكل فوق الشبع إلى حد التخمة وإفساد المعدة فهو حرام.

**الاعتدال فى الطعام والشراب فى رمضان:**

إن من حِكم الصوم فى رمضان فهم الصوم على حقيقته بألا نضع عند الإفطار ألوانًا من الطعام والشراب، نُسْرِف فيها كمًا، وننوع فيها كيفًا، ونجمع ما فاتنا من وجبات نزحم بها موائدنا، ونرهق بها مواردنا. إن المعدة سبب الشر، ومصدر البلاء للإنسان، ومبعث الأسقام والأمراض لذلك فرض الله الصوم علاجًا لها من هذه الآفات المهلكة. إن الإسراف فى الطعام والشراب يؤدى إلى التخمة، ويضر بالصحة، ويدعو إلى الخمول والركود، عن المقدام بن مَعْدِى كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» (رواه الإمام أحمد والترمذى)، هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها، فلقد أجمع الأطباء أن ملء المعدة مهلك مضعف، وسبب الأوجاع المختلفة، ومزيل لقوة الشباب ومُضْر به ويوصف العلاج الآن بالإقلال من الطعام ما استطاع الإنسان، إن اكتساب الصحة جاء من عدم الشبع، قال لقمان الحكيم لابنه: (يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة).

# حسن تربية النفس

إن كل الفرائض التى كلفنا الله بها ومنها الصيام ليست حَجْراً على حرية الإنسان، ولا تحد من نشاطه الفكرى، ولكنها توجيه لعقله ووقاية له من الانحراف الضار المؤذى؛ لأن الإسلام يريد أن تكتنف السعادة وجود الإنسان، والصوم ركن أساسى فى تربية النفس على الرجولة والخلق الحسن والصبر.

**أثر الصوم فى حسن تربية النفس:**

إن الصوم يُوجِدُ الخُلق الكريم القويم، ويعوِّدُ الإنسانَ الصبرَ على مشاق التكاليف ومطالب الحياة وآلامها وشدائدها، كما أنه يربى خلق الإرادة القوية التى تُكسبُ الإنسان شجاعة وإقدامًا فمن لا إرادة له لا يستطيع أن يواجه الحياة مواجهة فعالَة منتجة، والصوم يربى خلق الأمانة؛ لأن الصوم سرٌ بين العبد وربه، فالذى يراقب مولاه فى صيامه يُؤمن على كل ما يُسْند إليه من الأعمال. إنه كذلك يربى خلق التضحية حيث يضحى الصائم بمطالب نفسه فى سبيل مرضاة ربه كابحًا جِمَاح شهوته منصرفًا عن شيطانه وهواه، وتلك صفات تكوِّن الأمم التى تريد أن تنهض وتكون قائدة لغيرها إنها تحصِّنُ أبناءها من مفاسد الأخلاق وتُعدُّهم لمصارعة الشدائد ومواجهة أحداث الحياة، إنها تُعِدُّ نفوسهم إعداداً كاملاً يرتفع بها إلى مستوى الإنسانية الفاضلة فتتجه إلى الخير والبر والإحسان.

إن شهر رمضان فرصة لمن يريد أن يطهر نفسه، وتُغْفَر له ذنوبه، والله يحب من عباده التوابين ويحب المتطهرين، وقد فتح الله باب التوبة للإنسان ودله عليها ودعاه إليها ووعده القبول إذا تاب، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «رغِم أنفُ رجل ذُكرتُ عنده فلم يُصل علىَّ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان فانسلخ قبل أن تغفر ذنوبه، ورغم أنف رجل أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة» (أخرجه أحمد والترمذى).

إن علينا أن نقتدى برسول الله ﷺ فى صيامنا فلقد كان أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المرسلة: كان يجود بأنواع الجود من بذل العلم والمال وبذل نفسه فى سبيل إظهار دينه وهداية عباد الله وإيصال النفع العميم بكل طريق؛ يجيب سائلهم، ويعلم جاهلهم، ويقضى حوائجهم، ويكثر من الصدقة والإحسان فى رمضان، وبهذا كون مجتمعًا إيجابيًا فعالاً، وكان يقول صلوات الله وسلامه عليه: «من أفطر صائمًا على طعام وشراب من حلال صلّتْ عليه الملائكة فى ساعات شهر رمضان، وصلى عليه جبريل ليلة القدر» (أخرجه الطبرانى فى الكبير).

جدير بنا أن نصوم هذا الشهر الكريم شكرا لله على نعمة نزول القرآن فيه فقد كان قضاء على الباطل الذى أفسد على الإنسان عقله فعبد ما لا يستحق العبادة، واتجه إليه فى شدته، فعرّفه القرآن ربه وهداه إليه، كان القرآن قضاء على هذا الباطل الذى أفسد على الإنسان عاطفة الرحمة فقتل الأب الأبناء، واستحل الإنسان مال الغير، وهتك الأعراض فعدل القرآن غرائزه، واتجه بها الوجهة الإنسانية الصحيحة، ومحا الفوارق بين الطبقات فحقق بهذا العدالة الاجتماعية، فيجب أن نجعل رمضان رحلة رياضية روحية نخلع فيها نفوسنا من هموم الدنيا وآلامها إلى لذة اكتساب المعانى السامية وإلى السعادة التى لا يعرفها إلا الصائمون المخلصون الذين يبدؤون صيامهم باسمك اللهم صُمْتُ، ويختمونه باسمك اللهم أفطرت، وطوال يومهم فى أعمالهم مسبحين مراقبين مولاهم فيسبُغ عليهم حُلل الرضا والرضوان، وهؤلاء يكونون مصدر خير لأنفسهم ولأمتهم والناس أجمعين، ما أحوجنا إلى اكتساب تلك المعانى فى عهدنا الجديد الذى يجب أن يكون كل فرد عاملاً لا خاملاً ذا ضمير حى يشعر بألم المحتاجين ويترك الأنانية وحب الإثراء على حساب الآخرين واضعًا نُصْب عينيه قول الرسول الكريم ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه البخارى). علينا أن نعمل فالصوم إنما شرع لتسمو النفسُ الإنسانية، وتكون أكثر صبراً على العمل والإنتاج، وألا نترك العمل، يجب أن نعمل فكل أعمال الإنسان فى دائرة الحلال تصير بالنية الطيبة إلى عمل صالح يثاب عليه.

# المســـاواة

إن الله سبحانه خلق الناس جميعًا من آدم، وخلق آدم من تراب، قال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]، ولقد منع الإسلام التفرقة بين البشر على أساس الجنس أو اللون. قال رسول الله ﷺ: «الناس بنو آدم وآدم من تراب» (رواه أبو داود والترمذى)، وقرر أن التفاضل بين الناس إنما يكون على أساس المعانى الباقية والقيم الخالدة، معانى الآخرة التى يتوقف عليها مصير الناس.. يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، هذه الآية من الآيات الكريمة يخاطب الحق سبحانه فيها الناس أجمعين، أبيضَهم، وأحمرَهم، وأسودَهم غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، حاكمهم ومحكومهم، خطابًا صريحًا لا لَبْس معه ولا مواربة، عن حكمة الخلق، والمهمة المعلقة برقابهم بناءً على هذه الحكمة وجوهر هذا الخطاب، وأن الله سبحانه سوَّى بين الخلق فى أصل الخِلْقة، فهم جميعًا من ذكر وأنثى، وسوى بينهم فى الأصل الاجتماعى، فكل منهم ينتمى إلى شعب أو قبيلة، وجعل مصيرهم محكوما بسنة الاجتماع، فمن الضرورى أن يتعارفوا، ثم قرر الله سبحانه دستورا لجميع الخلائق مؤداه أن الناس فى هذه الدنيا بالنسبة إلى الخالق وفى ميزانه سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وهى كل ما ينال الله سبحانه من عباده، فالمال مهما كثر ليس بذى ثقل فى ميزان الله، والقوة مهما عظمت لا تعْدِل شيئًا فى حُكم الله، وأى جنس مهما ساد لن ينال الله منه شيئًا، وإنما ينال الله من عباده التقوى، فهى أساس الثواب يوم الحساب.

وقد كانت هذه الآية القرآنية أول إعلان فى التاريخ لحقوق الإنسان، وأول تأكيد لكرامته، وأول إشهار لحق المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين مستوياتهم، لقد جاء الإسلام وأعلن قراره الحاسم لمشكلة التفرقة بين البشر على

أساس الجنس أو اللون فقال: «الناس بنو آدم، وآدم من تراب» (من حديث رواه أبو داود والترمذى)، كما منع التفرقة على أساس المال أو الجاه أو القوة، فكل هذه أعراض زائلة؛ لأنها من مادة الدنيا، والدنيا كلها إلى فناء، وإنما يتفاضل الناس على أساس المعانى الباقية، والقيم الخالدة معانى الآخرة التى يتوقف عليها مصير الناس ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولقد فهم الناس على عهد النبى ﷺ هذا المعنى السامى برغم أنهم كانوا ينتمون إلى قبائل تتفاخر فيما بينها بالأنساب. ولكن الأحساب والأنساب والأموال كلها قد تأخرت مرتبتُها فى سُلَّم القيم الاجتماعية لتحل محلها قيمٌ من نوع جديد على وعى البشرية، قيمُ المساواة بين الأجناس والألوان، قيمُ التفاضل على أساس الفضائل والأخلاق القويمة والأعمال التى يُبْتغى بها وجه الله سبحانه، فالناس جميعًا، مهما تفاوتت أقدارهم أو مقدراتهم المادية، سواسية كأسنان المُشط، سواء فى ذلك عمر القرشى، أو بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى.

**الصيام والمساواة:**

إن للصوم أسراراً كثيرة من الناحية الاجتماعية، أو الفردية، من هذه الأسرار المساواة بين الأغنياء والفقراء، فالصيام نظام عملى يفرضه الإسلام فرضًا ليستوى الجميع فى بواطنهم وذلك لتسعد النفس الإنسانية بطريقة عملية، فإن المساواة الحقة حين يتساوى الناس فى الشعور، لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون، ويتراحمون بإحساس الألم الواحد، لا حين يتنازعون بالرغبات المتعددة، فالناس جميعًا يصومون عن الطعام والشراب والشهوات لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وأبيضهم وأسودهم وأحمرهم، إلا بالتقوى.

* * *

# استقامة اللسان

لقد أنعم الله على الإنسان، وجعل له لسانًا يتكلم به، ويعبر به عما يريده، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

إن من آيات الله الدالة على قدرته التامة على كل شيء اختلاف لغات البشر فهذا يتكلم بالعربية، وآخر بالفارسية، وثالث بالرومية إلى غير ذلك مما لا يُعْلم عدده من اللغات، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها، ومئات اللهجات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

إن اللسان هو أساس استقامة أعضاء الإنسان وأساسُ اعوجاجها، إن استقام استقامت الأعضاء، وإن اعوج اعوجَّت الأعضاء، فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلها تفكِّر اللسان تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججْت اعوججنا» (رواه الترمذى)، إن استقامة اللسان من خصال الإيمان، فعن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (مسند الإمام أحمد). إن لسانك هو الذى يجعل الناس من حولك يحبونك إذا تكلمت معهم بكلام طيب، واللسان أيضا هو الذى يجعل الناس من حولك يكرهونك ويبتعدون عنك إذا تكلمت معهم بكلام فيه غلظة وسفاهة وسوء أدب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والمؤمن ليس بذيء اللسان، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» (رواه الترمذى)، إن الكلام الطيب من صفات الأنبياء والمرسلين، روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أن

عيسى عليه السلام مر بخنزير على الطريق فقال له: انفُذْ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ قال: إنى أخاف أن أعوِّد لسانى النطق بالسوء.

ولقد بين الله سبحانه أنه من صفات عباد الرحمن إذا مروا بمجلس فيه لغو من القول أو الفعل أعرضوا عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. إن كثيراً من كلام الناس الذى يتحدثون به سراً مع بعضهم لا خير فيه إلا ما كان من أعمال الخير كالأمر بالصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو الإصلاح بين الناس، قال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا من حق توضحه أو باطل تدْحضُه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكُرها، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله من قال خير فغنم أو سكت فسلم» (رواه الديْلمى). إن الرجل يتكلم بالكلمة الطيبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو ذكر لله وشكر له ينال بها رضوان الله، وإن الرجل يتكلم بالكلمة الخبيثة من سب وشتم وغيبة ونميمة وكفر وشرك ينال بها سخط الله فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يُلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم» (رواه البخارى).

**استقامة اللسان والصيام فى رمضان:**

إن الصوم فى معنى الصمت وهذه حقيقة لا تجوُّز فيها، قال سبحانه على لسان مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، فالصوم شطران: صمت عن المحارم، وكف عن المشارب والمطاعم، والأول أجدى شطريه على الإنسانية، فالصوم الحق مجاهدة ومجالدة. ولقد نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصائمين الذين لا يحفظون لسانهم عن الكذب والغيبة والنميمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» (رواه البخارى) وقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إنى صائم، إنى صائم» (رواه البخارى).

# الاحتفال بالأعياد

لما قدم الرسول ﷺ المدينة وجد أن لأهلها يومين كانوا يلعبون فيهما فى الجاهلية، فقال لهم الرسول ﷺ: «إن الله أبدلكم بهما خيرًا منهما يوم الفطر، ويوم الأضحى» (رواه أبو داود)، ولقد جعل الله هذين العيدين بعد عبادة خاصة، فيوم عيد الفطر يأتى بعد صيام المسلمين شهر رمضان، ويوم عيد الأضحى يأتى بعد أداء فريضة الحج.

إن يوم عيد الفطر يومُ فرح وسرور؛ لأن الله وفق المسلمين للصيام فى شهر رمضان وقيام الليل، وقراءة القرآن، والاعتكاف فى العشر الأواخر من رمضان، وقيام ليلة القدر والدعاء والتسابق إلى فعل الخيرات، عيد الفطر يوم فرح للمسلمين لأنهم واثقون فى جزاء ربهم وكرمه، وهذا هو الذى يشير إليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره؛ وفرحة حين يلقى ربه» (رواه أحمد). وما دام هذا العيد يوم فرح وسرور فينبغى ألا نحزن فيه بالذهاب إلى المقابر والبكاء عندها فلنفرح فى هذا اليوم ونؤجل أحزاننا إلى أيام أخرى، ويوم العيد يوم الجائزة، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق أن أغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم يمن بالخير ثم يثيب عليه الجزيل، لقد أمركم بقيام الليل فقمتم، وأمركم بالصيام فصمتم، وأطعتم ربكم فاقبضوا جوائزكم، فإذا صلَّوْا نادى منادٍ ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكم» (المعجم الكبير للطبرانى)، ويوم العيد تنزل الملائكة الأرض وينادُون بصوت يسمع جميع الخلائق إلا الجن والإنس ينادون فيقولون: يا أمة محمد أخرجوا إلى رب كريم، يغفر الذنوب، فإذا استجاب المسلمون، ولبُّوا النداء وذهبوا إلى مكان الصلاة، يقول الله: «يا ملائكتى ما جزاء الأجير إذا عمل عمله وأدى واجبه؟ فتقول الملائكة: إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يُوفَّى أجره فيقول الله تبارك وتعالى: أشهدكم يا

ملائكتى أنى قد جعلت ثوابهم على صيامهم رمضان رضائى ومغفرتى» (العلل المتناهية لابن الجوزى).

إن العيد ليس لمن لبس الجديد والتمتع بالحياة فقط، ولكن بجوار لبس الجديد والتمتع بالحياة يكون أيضًا بانشراح الصدر وتكفير الذنوب والعطف على الفقراء والمساكين وإدخال البسمة على اليتيم، والمبادرة بالعفو والصفح عن الذين أساءوا إليك، وإذا كنا مطالبين بالعفو والصفح عن الناس فى يوم العيد فحريٌ بنا أن نبدأ بذوات القربى؛ لأن الله قدمهم على باقى إخوانه المسلمين مع توصيته جل شأنه بالإحسان إلى الجميع قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

إن الصيام يوم العيد حرام، واستثارة الأحزان يوم العيد حرام. إن الله تبارك يُعْبد بإشاعة الفرح والسرور، كما يعبد بالجدِّ فى معالى الأمور، فقد ورد فى الصحيحين عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فى يوم عيد وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال لى: أمزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا» (رواه البخارى)، وهذا دليل على أن اللهو المباح يعد انتصارا للفطرة السليمة، وإبرازا لروعة أحكام الإسلام، إن يوم العيد هو يوم إفشاء الحب والسلام، فالناس يستنشقون سلاما ومحبة ولا يخرج من أفواههم إلا الحب والمودة؛ لأن الإسلام يأمرنا بإشاعة الحب والود، وعدم الهجر، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» (مسند أحمد).

* * *

# حسن تسمية المولود

من الأخلاق الاجتماعية المتبعة أن المولود حين يولد يختار له أبواه اسما يُعرف به، ويتميز لدى القاصى والدانى بسببه، والإسلام بتشريعه الكامل اعتنى بهذه الظاهرة واهتم بها، ووضع من الأحكام ما يشعر بأهميتها والاعتناء بها، حتى تعلم أمة الإسلام كل ما يتعلق بالمولود وكل ما يرفع من شأنه ويتصل بتربيته.

**أولاً: متى يسمى المولود؟**

الأمر فيه سعة فيجوز تسميته فى اليوم الأول من ولادته، وجاز التأخير إلى ثلاثة أيام، وجاز إلى يوم العقيقة، وهو اليوم السابع، وجاز قبل ذلك، وجاز بعده، روى أصحاب السنن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل غلام رَهْن بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه، ويُحْلَقُ رأسه» (أخرجه النسائى)، وروى عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لى الليلة غلام فسميته باسم أبى إبراهيم» (رواه البخارى).

**ثانيًا: ما يستحب من الأسماء وما يكره؟**

إن مما يجب أن يهتم به المربى عند تسمية الولد أن ينتقى له من الأسماء أحسنها وأجملها تنفيذا لما أرْشد إليه، وحض عليه، وأمر به نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»، وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبدُ الله وعبد الرحمن»، كما عليه أن يجنبه الاسم القبيح الذى يمس كرامته، ويكون مدعاة للاستهزاء به والسخرية عليه، فهذا رسول الله ﷺ كما روى الترمذى عن عائشة: «كان يغير الاسم القبيح»، وروى الترمذى وابن ماجة عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ابنة لعمر كان يقال لها العاصية فسماها رسول الله ﷺ جميلة.

كما عليه أن يجنبه الأسماء التى لها اشتقاق كلمات فيها تشاؤم، حتى يسلم الولد من مصيبة هذه التسمية وشؤمها، روى البخارى فى صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال: أتيت إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال: ما اسمك؟ قلت: حزْن. فقال: أنت سهل، قال: لا أغير اسما سمانيه أبى قال ابن المسيب: فما زالت تلك الحزونة فينا بعد.

كما عليه أن يجنبه الأسماء المختصة بالله سبحانه فلا تجوز التسمية بالأحد ولا بالصمد ولا بالخالق ولا بالرزاق ولا بغيرها، قال أبو داود فى سننه: إن هانئا لما وفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة مع قوم كانوا يكنونه بأبى الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: إن الله هو الحكم وإليه الحُكْم فلم تُكنى أبا الحكم؟ فقال: إن قومى إذا اختلفوا فى شيء أتونى فحكمت بينهم، فرضى كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا؟ فما لك من الولد؟ قال: لى شريح، ومسلم وعبد الله، قال ﷺ: فمن أكبرهم؟ قال: شريح، قال: فأنت أبو شريح.

كما عليه أن يجنبه الأسماء المعبدة لغير الله كعبد العزى، وعبد الكعبة، وعبد النبى، وما شابهها فإن التسمية بهذه محرمة باتفاق، أما قول النبى عليه الصلاة والسلام فى غزوة حنين: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» (رواه البخارى)، فهذا ليس من باب إنشاء التسمية وابتدائها، كما يقول ابن القيم، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذى عرف به المسمى دون غيره ولاسيما فى المواقف التى فيها تحد للعدو كموقف النبى والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرُم.

* * *

## توظيف الطاقات واحترام المواهب وتقدير الكفاءات

إن من أخلاق الإسلام توظيف الطاقات، واحترام المواهب، وتقدير الكفاءات لصالح المجتمع المسلم؛ لأن الإسلام دين يدعو إلى الرقى والتقدم لصالح البشر؛ فالعلاقة بين العبد وربه ليست مقتصرة على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما العلاقة بين العبد وربه تمتد لتشمل الرحمة بعباده والعدل بينهم أيا كان جنسهم وأيا كان لونهم. ومن الرحمة والعدل بالناس أن يوظف أولو الأمر الطاقات الموجودة فى المجتمع للصالح العام وأن يحترموا المواهب وأن يقدروا الكفاءات.

إن رسول الله ﷺ كان قدوة حسنة فى الاستفادة من الطاقات الموجودة فى المجتمع وذلك باختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب على أساس من الصلاح والأمانة، قال تعالى على لسان ابنة شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، لقد اختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير لأعظم مهمة فى ذلك الوقت، وهى أن يكون مصعب سفيره إلى المدينة يفقه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة، ويُدخل غيرهم فى دين الله، ويعد المدينة ليوم الهجرة العظيم، كان فى أصحاب الرسول ﷺ يومئذ من هم أكبر منه سنًا وأكثر جاها، وأقرب من الرسول ﷺ قرابة ولكنه اختار مصعب الخير وهو يكل إليه بأخطر قضايا الساعة ويلقى بين يديه بمصير الإسلام فى المدينة التى ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة والدعاة، وحمل مصعب الأمانة مستعينًا بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم، ولقد غزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه وإخلاصه فدخلوا فى دين الله أفواجا. لقد جاءها يوم بَعَثَه الرسول ﷺ وليس فيها سوى اثنى عشر مسلما هم الذين بايعوا النبى ﷺ من قبْل بيعة العقبة، ولكنه لم يكد يتم بينهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول ﷺ.

وفى موسم الحج التالى لبيعة العقبة كان مسلمو المدينة يرسلون إلى مكة للقاء الرسول ﷺ وفدا يمثلهم، وينوب عنهم، وكان عدد أعضائه سبعين مؤمنا ومؤمنة تحت

قيادة معلمهم ومبعوث نبيهم إليهم مصعب بن عمير، لقد أثبت مصعب بكياسته وحسن بلائه أن رسول الله ﷺ عرف كيف يختار، فلقد فهم مصعب رسالته تماما ووقف عند حدودها، عرف أنه داعية إلى الله ومبشر بدينه الذى يدعو الناس إلى الهدى وإلى صراط مستقيم، وأنه كرسوله الذى آمن به ليس عليه إلا البلاغ.

وهذا أسامة بن زيد أمَّره الرسول ﷺ على جيش بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر، وأسامة فى ذلك الوقت لم يتجاوز العشرين من عمره أمره الرسول ﷺ على جيش يذهب إلى الروم ليمنعهم من الاعتداء على الدولة الإسلامية فى الجزيرة العربية. لكن الرسول ﷺ توفى قبل أن يتحرك الجيش إلى غايته، ولكنه كان قد ترك وصيته الحكيمة لأصحابه: «أنفذوا بعث أسامة أنفذوا بعث أسامة» (فتح البارى لابن حجر) وأصر الصديق على إنفاذ وصية الرسول ﷺ وتحرك جيش أسامة إلى غايته فلما علمت الروم بقيادة جيش أسامة انكمش الروم، ولم يعودوا يتخذون من حدود الشام نقط وثُوب على مهد الإسلام فى الجزيرة العربية، وعاد الجيش بلا ضحايا وقال فيه المسلمون يومئذ: ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة.

إن الرسول ﷺ كان يحترم المواهب ويقدر الكفاءات لصالح الدعوة والمجتمع الإسلامى، ولو كانت المواهب غير إسلامية فهذا عبد الله بن أريقط اتخذه الرسول ﷺ دليلا له فى رحلته المحفوفة بالمكاره وهو على شركه.

ومن هنا استنبط العلماء جواز الاستعانة بغير المسلمين واتخاذهم مرشدين فى الحرب إذا لم يعرف عنهم الغدر والخيانة، وأمن جانبهم، واشتهروا بالصدق والوفاء، فليس بمستهجن أن يتصف غير المسلمين ببعض الصفات الحسنة كالكرم والشجاعة والنجدة والوفاء والصدق، فالإسلام يحترم الكفاءات ويقدر المواهب ويأخذ برأيها، ولو كانت غير إسلامية ما دام ذلك للصالح العام.

* * *

# احتــرام القضــاء

القضاء أمر لازم لقيام الأمم، ولسعادتها وحياتها حياةً طيبة، ولنُصرْة المظلوم، وقمع الظالم، وقطع الخصومات وأداء الحقوق إلى مستحقيها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وللضرب على أيدى العابثين وأهل الفساد، كى يسود النظام فى المجتمع فيأمن كل فرد فيه على نفسه وماله، وعلى عرضه وحريته، ومن ثم يزيد الإنتاج، فتنهض البُلدان، ويتحققُ العمران، ويتفرغ لما يصلحهم دنيا ودينا، فإن الظلم من شيم النفوس، ولو أنصف الناس لاستراح قضاتهم.

إن القضاء من عمل الرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ورسول الإسلام محمد ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة والدائمة كما كان مأمورا بالدعوة والتبليغ كان مأموراً بالحكم والفصل فى الخصومات، وقد ورد فى القرآن الكريم فى غير آية ما يشير إلى ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن السنة أحاديث منها قول النبى ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (رواه البخارى).

إن الإسلام يكفل للقاضى العزة والكرامة والهيبة، فهو يعطيه منزلة رفيعة لدى الحكام، ولدى رجال الدولة، لا يطمع فيها خاصة القوم وصفوتهم ليأمن بذلك الطعن به من حيث لا يدرى، وذلك لأن مكانته وخطورته تجعلان الآخرين غير مجترئين على النيل منه، ولقد بينت الشريعة الإسلامية أن القاضى مستقل فى قضائه ليس لأحد عليه من سبيل، وكان قضاء النبى ﷺ المثل الأعلى لصيانة الحقوق، والتسوية بين

الخصوم والحرص على إقامة الحدود بين الناس، مهما كانت منزلتهم، قال ابن عبد السلام يصف قضاة الإسلام العادلين: (وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه، ولا يقبله إن شهد عنده، إن نصوص الشريعة وقواعدها العامة تمنع ولاة الأمور فى الدولة من التدخل فى القضاء لتوجيهه لصالح أحد الخصوم، لأن فى هذا ظلما والظلم كله محرم، والنظام الإسلامى يتقيد بصفة عامة فى كل أصوله وفروعه ومظاهره بمشروعية عليا هى العدل القائم على التوحيد، والتوحيد ليس بالقول فحسب، بل بالعمل الذى يصادقه، هذا العمل هو تنفيذ ما أمر الله به، ومنع ما نهى الله عنه، وذلك على وجه التضامن بين الناس، ومن مقتضى ذلك أن تكون أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه مصدراً للحق والعدل، فما أمر به هو الحق والعدل، من أجل ذلك أحاط الخلفاء الراشدون ورؤساء الدولة الإسلامية القضاء بكل مظاهر الإجلال والتكريم، وصانوه عن التدخل ضمانا للحق فلم يسعوا إلى تحويل الأحكام لصالحهم، أو لصالح من يحبون، وإنما كفلوا لأحكام القضاء الاحترام والنفاذ، فكانوا يقبلون الأحكام الصادرة ضدهم راضين، وينفذونها طائعين، يروى أبو يوسف - وهو من أفذاذ القضاة - عن نفسه أنه جاءه رجل يدَّعى أن له بستانا فى يد الخليفة فأحضر الخليفة إلى مجلس القضاء وطلب من المدعى البينة فقال: غصبه المهدى منى ولا بينة لدى وليحلف الخليفة فقال أمير المؤمنين: البستان لى اشتراه لى المهدى ولم أجد به عقْدا، فوجه القاضى أبو يوسف إلى الخليفة اليمين ثلاث مرات، فما لم يحلف قضى بالبستان للرجل.

ومن ذلك أنه رد شهادة الوزير الفضل بن الربيع فسأله الرشيد أعظم ملوك الأرض فى عصره فى ذلك فقال: سمعته يقول: أنا عبد الخليفة فإن كان صادقا فلا شهادة لعبد، وإن كان كاذبا فشهادته أيضا مردودة لكذبه، وبالغ الخليفة فى الجدل، فقال وما شأنى كشاهد، أتقبل شهادتى؟ فقال أبو يوسف: لا فعجب الخليفة وسأله عن السبب فقال: لأنك تتكبر على الخلق، ولا تحضر الجماعة مع من حضرها من المسلمين، وهذا ينافى العدالة التى هى شرط لقبول الشهادة، فبنى الرشيد مسجداً فى داره وأذن للعامة فى الصلاة فيه فحضر بذلك صلاة الجماعة.

# المراجـــع


## كتب التفسير:

**تفسير ابن كثير:** إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى أبو الفدا. دار الفكر - بيروت: ١٤٠١هـ.

**تفسير القرطبى:** أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى. دار الشعب - القاهرة.

## الصحاح:

**صحيح مسلم:** مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى. دار إحياء التراث العربى - بيروت.

**صحيح البخارى:** محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخارى الجعفى. دار ابن كثير، اليمامة - بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٧٠م.

**صحيح ابن خزيمة:** محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمى النيسابورى. المكتب الإسلامى - بيروت: ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

**المستدرك على الصحيحين:** محمد بن عبد الله أو عبد الله الحاكم النيسابورى. دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

## السنن:

**سنن الترمذى:** محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذى السلمى. دار إحياء التراث العربى - بيروت.

**سنن أبى داود:** سليمان بن الأشعث أبو داود السجستانى الأزدى. دار الفكر.

**سنن النسائى الكبرى:** أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى. دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

**سنن ابن ماجة:** محمد بن يزيد أبو عبد الله القزوينى. دار الفكر - بيروت.

**كتب الشروح:**

**التمهيد لابن عبد البر:** أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى. وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب: ١٣٨٧هـ.

**شرح الزرقانى:** محمد بن عبد الباقى بن يوسف الزرقانى. دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤١١هـ.

**فيض القدير:** عبد الرؤوف المناوى. المكتبة التجارية الكبرى - مصر: ١٣٥٦هـ.

**كتب التاريخ:**

**العِبَر فى خبر مَنْ غَبَر:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى. مطبعة حكومة الكويت - الكويت: ١٩٨٤م.

**المعاجم:**

**لسان العرب:** محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى. دار صادر - بيروت: ١٤١٥هـ.

**مختار الصحاح:** محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى: مكتبة لبنان - بيروت: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

# الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

| الموضـوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

رقم الإيـــداع :
٢٠١٠٨ /٢٠٠٥
الترقيم الدولى :

977 - 294 - 351 - 4

**مطـابـع آمـــون**

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦